

الأعمال الكاملة

مَاقَلَّ وَدَلَّ

وَمَضَاتٌ وَنَبَضَاتٌ

أ.د./ أحْمَد الرَّيْسُوني
أُسْتَاذُ أُصُولِ الفِقْهِ وَمَقَاصِدِ الشَّرِيعَة

دار



للنشر و التوزيع


ما قلّ ودلّ
ومضاتٌ ونبضاتٌ

الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م

بطاقة الفهرسة

الريسوني ، أحمد

ما قل ودل ومضات ونبضات أ.د/ أحمد الريسوني . ط١ .

المنصورة : **دار الكلمة للنشر والتوزيع ، ٢٠١٣**

١٩٦ص ، ٢٤ سم

رقـــم الإيداع : ٢٠١٢/١٦٣٧٦

الترقيم الدولي : ٩٧٨/٩٧٧/٣١١/٤٢٣/٧

دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر - القاهرة

القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

E-mail:mmaggour@hotmail.com

E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com

www.facebook.com/DarAlkalema

ما قلّ ودلّ

ومضات ونبضات

أ.د/ أحمد الريسوني

أستاذ أصول الفقه ومقاصد الشريعة

دار الكلمة


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

هذا هو الكتاب الأول الذي جُمع من مقالات وحوارات للدكتور أحمد الريسوني ، والذي قام بجمعه الأخ الحبيب حسن السرات ، وهو كان من المتابعين والمرافقين للدكتور أحمد الرسوني .

وطبع هذا الكتاب طبعة أولى في المغرب ، ولأننا تبعنا هذا المنهج في عدد من الإصدارات مثل كتاب أبحاث في الميدان ، وكتاب مراجعات ومدافعات ، فإننا نعيد طباعة كتاب ما قل ودل ضمن مشروع الأعمال الكاملة للدكتور أحمد الريسوني .

وإننا لنتقدم بالشكر إلى الأخ حسن السرات وندعو له وللدكتور أحمد الريسوني بالتوفيق والسداد .

محمد أبو عجور

تصدير

أتقدم – أولا – بجزيل الشكر والامتنان للأخ الكريم والصديق القديم ، الأستاذ الحسن السرات ، على مبادرته إلى جمع ما تيسر له من هذه المقالات القصيرة ، وعلى تفضله بمراجعتها وإعدادها للنشر ، فجزاه الله خيرا وتقبل منه .

وأوضح – ثانيا – أن ما أدرج بين دفتي هذا الكتاب ، إنما هو عبارة عن ومضات ونبضات ، فهي كلها انفعال وتفاعل مع الأحداث ومقتضياتها ، ومع الوقائع ومتطلباتها .

لم يكن بالإمكان – دائماً – التعبير كتابة عما ينقدح في الذهن من ومضات وما يختلج في القلب من نبضات ، ولكن هذه نماذج مما تيسرت كتابته والإفصاح عنه من ذلك .

وإذا كان الحكماء قد علمونا أن « ما لا يدرك كله لا يترك جله » ، فقد تعلمت من الشرع ومقاصده أن ما لا يدرك جله لا يترك بعضه ، وأن ما لا يدرك كثيره لا يترك قليله ، وأن الميسور لا يسقط بالمعسور ، وقد قال علماء المقاصد : « إن الأنبياء بعثوا بتحصيل المصالح أو تكثيرها ، وبدرء المفاسد أو تقليلها » .

لأجل هذا لا أجد غضاضة في أن أكتب عن قضايا كبيرة أو صغيرة صفحة أو صفحتين ، إذا تعذر علي تدبيج المقالات المحكمة والأبحاث المتقنة والتحليلات المطولة ، فلكل أثره ، ولكل أجره ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ .

الرباط في ١٥ من شعبان ١٤٢٦هـ / ١٩ من شتنبر ٢٠٠٥م .

أحمد الريسوني

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه مجموعة من المقالات التي كتبها الدكتور أحمد الريسوني ونشر أغلبها في جريدة « التجديد » الأسبوعية واليومية تحت أعمدة مختلفة ، وبعضها في صحف عربية مثل « الوطن » السعودية .

في « التجديد » كتب الدكتور أحمد الريسوني تحت عمود « زاد على الطريق » بصفته رئيسا لحركة التوحيد والإصلاح في المرحلة الانتقالية من الاندماج بين حركتي الإصلاح والتجديد ورابطة المستقبل الإسلامي ، وكما يدل اسم العمود ، فقد كانت تلك كلمات توجيهية وتربوية لعموم أعضاء الحركة في تلك الفترة ، وكان ذلك العمود بمثابة لقاء أسبوعي مع أولئك الأعضاء الذين كانوا يترقبون ما كتبه الدكتور أحمد الريسوني بفارغ الصبر ، وقد اقتبس الريسوني اسم العمود مما كان يكتبه الأستاذ مصطفى مشهور رحمه الله ، أحد الأعضاء المؤسسين لجماعة الإخوان المسلمين وأحد مرشديها العامين الذين تحملوا المسؤولية وانتقلوا إلى دار البقاء ، في مجلة الدعوة الإخوانية تحت هذا الاسم بالضبط ، ثم جمعها فيما بعد في كتاب «زاد على الطريق » . وحسب علمي ، كانت كلمات الريسوني تلك ، استجابة لحاجة ملحة في فترة حرجة من عمر الحركة الاندماجية الفريدة الوليدة وتطبيقها لقرار من المكتب التنفيذي الانتقالي للحركة في تلك المرحلة التي ابتدأت في صيف سنة ١٩٩٦ .

أكثر شيء إثارة للاهتمام وجدارة بالتسجيل هو قدرة الدكتور أحمد الريسوني على الكتابة في وقت عز فيه الوقت لرجل مثله تحمل مسؤولية قيادة حركة كان شغلها الشاغل إنجاح الوحدة من جهة أفقيا وعموديا وتصوريا وتربويا ، مع الانخراط في

العمل السياسي والمشاركة في الانتخابات الجماعية والتشريعية لعام ١٩٩٧ ضمن حزب العدالة والتنمية ، وكان يسمى آنئذ الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية ، بقيادة الزعيم الدكتور عبد الكريم الخطيب : مهمة مزدوجة وثقيلة جدا تعتبر أصعب شيء في الحياة الدعوية والحركية والسياسية للدكتور أحمد الريسوني وفق ما ردده في أكثر من مناسبة وحسب ما سمعته منه شخصيا .

وفي « التجديد » اليومية التي شرعت في الصدور اليومي في رمضان عام ١٤٢١ / دجنبر ٢٠٠١ ، كتب الريسوني تحت عمود « أوراق التجديد » و « عابر سبيل » توجيهات تربوية بصفته رئيسًا للحركة ، ومقالات علمية بصفته العلمية الأكاديمية . كما كتب أشهر عمود له في « التجديد » اليومية ، ألا وهو عمود « ما قل ودل » الذي كان يظهر كل أربعاء ، وكان يترقبه أعضاء الحركة وقراء التجديد وخصوم الريسوني والحركة أيضًا . وفي هذا العمود الشهير كان الريسوني يكتب معلقا على أحداث مضت أو ستأتي ، فأغلبها إذن مقالات سياسية وفكرية توثق لسيرة ومسيرة الحركة الإسلامية عامة بالمغرب وحركة التوحيد والإصلاح خاصة ، أي أنها تعتبر وثائق تؤرخ لاهتمامات عضو من الأعضاء البارزين والرموز المؤسسين للحركة الإسلامية بالمغرب ، ولعالم من علماء المغرب والعالم الإسلامي ، كما تؤرخ للمواجهات والمواقف والمعارك التي خاضتها الدعوة والحركة الإسلامية . هي صفحات حية للسجال والصراع والتدافع الواقع بين الحركة وخصومها الظاهرين والمتسترين وراء جرائد يومية وأسبوعية وقنوات تلفزيونية ، ووراء شخصيات وزارية وسياسية وحزبية تستخدم كاسحات ألغام ، عن وعي وعن غير وعي ، ضد الصحوة الدينية عامة والحركة الإسلامية خاصة ، أما المقالات الأخرى التي تناولت شؤونا وأحداثا إسلامية ودولية فهي تظهر سعة الأفق والنظر لدى الدكتور أحمد الريسوني ، وتجسد جانبا من « الشهادة » على الناس بالمعنى القرآني للكلمة

والاهتمام الواجب بأمور المسلمين .

وقد عايشت معظم هذه المقالات حين ميلادها وحين وصولها إلى جريدة « التجديد » ، عندما كنت سكرتيرا للتحرير ونائبا لرئيس التحرير في عهد الدكتور أحمد الريسوني وهو مدير مسؤول للجريدة وإلى جانبه الأخ محمد يتيم وهو رئيس للتحرير ، ثم عندما كنت رئيسا للتحرير عندما تولى مسؤولية الجريدة كل من الأخ سعد الوديي والأخ عبد الإله بنكيران . أذكر أننا – مسؤولين ومحررين وعاملين – كنا نتسابق للاطلاع على مقالات الدكتور أحمد الريسوني وهي خام ، أي وهي مكتوبة بخط يده الجميل الواضح الأنيق ، أو وهي في طور التصفيف والتصحيح والإخراج . وكنت أحظى بشرف متابعتها وتصحيحها ومراجعتها والاستمتاع بها قبل أي أحد ، وحرصت على ذلك غاية الحرص واعتبرته تشريفا وامتياز خصني به الدكتور أحمد الريسوني وثقة منه في ، وقد توج ذلك التكليف والتشريف بجمع تلك المقالات في هذا الكتاب وإعدادها وترتيبها وتبويبها وتقديم بعض التوضيحات الضرورية لها .

ويمكن تصنيف المقالات المضمنة في هذا الكتاب إلى مقالات تربوية توجيهية، وهي المدرجة في القسم الأول ، ومقالات فكرية وسياسية وهي المنشورة ضمن القسم الثاني ، لكن تجمعها خصائص في الشكل والمضمون والأسلوب . أما في الشكل فهي مقالات قصيرة مركزة ومصوبة نحو هدف واضح ، وقد أوتي الدكتور أحمد الريسوني موهبة الجمع في الكلام والإيجاز في التعبير والقصد في التسديد والمضي نحو الغاية بسهولة ويسر ، رغم أنه كان يجد نفسه مكبلا بعدد الكلمات في العمود ، وذلك ميزان من موازين الكيل لدى الصحافيين . وفي تقديري ترجع هذه المقدرة في كتابة جوامع الكلم ومهارة الإيجاز ، مع البراعة في الإنجاز إلى تخصص الريسوني العلمي في أصول الفقه ومقاصد الشريعة حيث الضبط والإحسان

والإتقان في اختيار الكلمات والمصطلحات والقصد في العبارات ، بالإضافة إلى الثقافة الإسلامية الشاملة للدكتور أحمد الريسوني ، ثقافة دعوية تلزم المشتغلين بالدعوة الإسلامية إلى الجمع بين الثقافة الشرعية والثقافة التاريخية والثقافة الواقعية والسعي نحو تنزيل الشرائع على الوقائع . وفي نظري ، لو لم يكن الريسوني عالما وقائدا لكان كاتبا وأديبا مؤلفا .

أما من حيث الأسلوب ، فإن مقالات الدكتور أحمد الريسوني تعد قطعا أدبية رائعة جمع فيها الرجل بين السهولة والامتناع ولو كان الأمر يتعلق بقضية علمية ، ومن يقرؤها يدرك أن الكاتب عالم أديب وأديب عالم ، وقليل من العلماء من استطاعوا التعبير بأسلوب بياني سهل واضح ، وقليل من الأدباء أيضا من استطاعوا تعزيز أسلوبهم بمضامين علمية .

شيء مهم تميز به الدكتور الريسوني بصفته كاتبا ، وهو الالتزام بميقات النشر ، إذ لم يسجل عليه في أي يوم تأخره عن الالتزام بموعد تسليم المقال على الرغم من مسؤولياته المتعددة وتنقلاته المختلفة ، وأذكر هنا بكل صدق وصراحة أن الدكتور أحمد الريسوني كان هو الرجل الوحيد الذي وفى بالتزامه بالكتابة في « التجديد » من بين كل الذين وعدوا بالكتابة المنتظمة ، خاصة من ذوي المسؤوليات في الحركة أو في الأوساط القريبة منها . وقد كان يشعرنا بالعزم على التوقف عن الكتابة بسبب السفر الطويل أو الرغبة الشخصية أو لسبب آخر ، قبل ذلك بوقت معتبر ، وكان يحضر شخصيا لتوضيح الأمر ، وكنا بطبيعة الحال نأسف لذلك غاية الأسف وننتظر عودته للكتابة على رغب وطلب . ومن أصعب الأشياء على أي صحيفة أن تخسر كاتبا ملتزما مبدعا له قراؤه ومتابعوه لأنها تعلم أن ذلك لا ينعكس فقط على مبيعاتها ، بل على صورتها وشخصيتها المعنوية . ويجب أن أعترف هنا للأستاذ محمد يتيم الذي شغل منصب رئيس تحرير جريدة « التجديد » بالتزامه الدائم بالكتابة

وتميزه بالسرعة فيها والإكثار منها أيضًا .

كما تتسم بعض المقالات – خاصة منها السياسية والسجالية – بأسلوب ساخر لاذع ، وباستعارات وصيغ رمزية مجازية ، لا تخل بالمعنى المقصود ، وخاصة إذا وضعت في سياقها .

ذلك أن أحمد الريسوني اجتمعت فيه عدة خصائص قلما تجتمع لرجل مثله ، فهو عالم متخصص في علم من أدق العلوم وأشملها في العلوم الإسلامية ألا وهو أصول الفقه ومقاصد الشريعة ، العلم الذي نبغ فيه كثير من العلماء المغاربة عبر التاريخ الإسلامي ، وجعله مرجعا علميا بارزا ومنارا من منارات مقاصد الشريعة في العالم الإسلامي ونقله من المحلية إلى العالمية وأهله ليتبوأ شرف المشاركة في تأسيس الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين إلى جانب فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي ، ولينتخب ضمن العلماء الأعضاء في الأمانة العامة للاتحاد سنة ٢٠٠٤ .

وهو أيضا من رجالات الحركة الإسلامية المؤسسين لها بالمغرب والذين تحملوا فيها مسؤولية الريادة والقيادة في ظروف محلية وإقليمية ودولية صعبة للغاية ، فانتقلت من السرية إلى الوضوح والعلنية ، ومن التشتت والتشرذم إلى درجات من التوحد والتكتل ، ومن العمل التربوي والثقافي إلى العمل الاجتماعي والسياسي ، ومن المحلية إلى الظهور والعالمية ، ومن الطائفية والانغلاق إلى الانفتاح والتواصل .

وهو كذلك رجل سياسي بالمعنى الأصيل للسياسة وليس بمعناها الاحترافي الدخيل . وقد انعكست هذه المزايا الرفيعة في مسار الحركة الإسلامية بالمغرب وانتفعت بها أيما انتفاع ، حتى تعجب الدكتور رضوان السيد في إحدى زياراته للمغرب أن يكون على رأس الحركة الإسلامية بالمغرب عالم أصولي الشيء الذي عز نظيره في الحركات الإسلامية بالعالم العربي والإسلامي .

ولد الدكتور أحمد الريسوني سنة ١٩٥٣ بجماعة ثلاثاء ريسانة بناحية القصر الكبير والعرائش بالمملكة المغربية . وفي القصر الكبير تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي حصل على الإجازة في الشريعة من جامعة القرويين بفاس سنة ١٩٧٨ . أتم دراسته العليا بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس بالرباط فحصل منها على :

- شهادة الدراسات الجامعية العليا سنة ١٩٨٦ .
- دبلوم الدراسات العليا (ما جستير) سنة ١٩٨٩ .
- دكتوراه الدولة سنة ١٩٩٢ .

وعمل عدة سنوات بوزارة العدل (١٩٧٣ – ١٩٨٧) .

وعمل عدة سنوات أستاذا بالتعليم الثانوي الأصيل (١٩٧٨ – ١٩٨٤) .

عمل أستاذا لعلم أصول الفقه ومقاصد الشريعة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة محمد الخامس ، وبدار الحديث الحسنية – بالرباط منذ ١٩٨٦ حتى سنة ٢٠٠٥ حيث شارك في حركة المغادرة الطوعية للوظيفة التي اقترحتها الحكومة المغربية على الموظفين .

والريسوني عضو مجلس الأمناء للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ،وعضو برابطة علماء المغرب ، وشارك في تأسيس وتسيير عدد من الجمعيات العلمية والثقافية ، وهو أمين عام سابق لجمعية خريجي الدراسات الإسلامية العليا ، ورئيس لرابطة المستقبل الإسلامي بالمغرب سابقا ، ورئيس لحركة التوحيد والإصلاح بالمغرب سابقا ، وهو الآن عضو المكتب التنفيذي لحركة التوحيد والإصلاح ، ومستشار أكاديمي للمعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن وممثله بالمغرب .

مارس تدريس أصول الفقه ومقاصد الشريعة منذ ١٩٨٦ ، وأشرف على

عشرات الرسائل والأطروحات الجامعية أكثرها يندرج في إطار مشروع متكامل وشامل في مجال مقاصد الشريعة والفكر المقاصدي ، وهو الآن رئيس اللجنة العلمية بحركة التوحيد والإصلاح .

من مؤلفاته المنشورة :

- نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي (ترجم إلى الفارسية ثم إلى الإنجليزية) .
- نظرية التقريب والتغليب وتطبيقاتها في العلوم الإسلامية .
- من أعلام الفكر المقاصدي .
- مدخل إلى مقاصد الشريعة .
- الفكر المقاصدي قواعده وفوائده .
- الاجتهاد : النص والمصلحة والواقع (ضمن سلسلة حوارات لقرن جديد) .
- الأمة هي الأصل (مجموعة مقالات) .
- الوقف الإسلامي مجالاته وأبعاده (ترجم إلى الإنجليزية والفرنسية) .
- الحركة الإسلامية : صعود أم أفول ؟ الجزء الأول (ضمن سلسلة حوارات) .
- بحوث كثيرة منشورة في المجلات العلمية وضمن أعمال الندوات .

كان لي شرف مصاحبة الدكتور أحمد الريسوني في بعض محطات الحركة الإسلامية بالمغرب ، وأتيحت لي الفرصة لأعرف هذا الرجل النادر عن كثب . أجل ، إنه رجل نادر جمع الله له بين الذكاء الفطري الحاد والعلم الشرعي الواسع والخلق الإسلامي الرفيع والقدرة على القيادة في أحلك الظروف .

أحمد الريسوني رجل إذا عرفته أحببته ولم تشبع منه إطلاقا ، وتتمنى أن يمتد الزمان معه بلا نهاية ، وإذا عاشرته اكتشفت أنه يحمل في ثنايا فؤاده وطوايا

شخصيته براءة الطفولة وطهارتها من درن السوء والفحشاء ، وقوة الرجولة وحزمها في الوقت الملائم بالقدر الملائم .

أجمل شيء يشدك إليه خلق التواضع الظاهر في كل شيء فيه : في الملبس والمأكل والمشرب ، في المنزل مع أهله وخارج الأهل والمنزل ، في الجموع الخاصة والجموع العامة ، مع الموافقين ومع المخالفين ، مع العامة ومع الخاصة ، مع الكبار ومع الصغار ، مع الطلبة ومع الأساتذة .

ولن تخطئ نفسك ولا عينك ابتسامته الطرية كأنك تراها لأول مرة ، وكلما ابتسم من جديد قلت هذه الابتسامة التي شاهدتها من قبل ، وإذا ضحك الريسوني رأيت عينيه تلمعان ووجنتيه تحمران ، وهو إلى ذلك يحمل روحا خفيفة للفكاهة والدعابة العلمية بحيث يستطيع أن يدخل عليك السرور في أسوأ اللحظات بنكتة لطيفة أو تعليق نادر .

ومع هذا التفكه والتبسم ، فإن الريسوني رجل منظم غاية التنظيم ، حريص على الوقت غاية الحرص ، يسبقك إلى الموعد مهما اشتد حرصك ، رغم انشغالاته ومسؤولياته ، وقد شاهدته وهو يقوم بتصحيح أوراق إجابات الطلبة في سيارته بين الرباط وسوق أربعاء الغرب في طريقه لإلقاء محاضرة ، في الوقت الذي كانت فيه زوجته المصونة المجاهدة تسوق السيارة ، ومن شد حرصه على الوقت يسأل دائمًا بإلحاح في اللقاءات والندوات والمحاضرات ليس فقط عن ساعة البدء ، ولكن عن ساعة الختم ، ليلتزم بها وبما بعدها مهما يكن الأمر ومهما يكن الحاضرون والمنظمون .

تولى الريسوني منصب القيادة في عدة جمعيات وتنظيمات ، أشهرها الجمعية الإسلامية بالقصر الكبير ورابطة المستقبل الإسلامي وحركة التوحيد والإصلاح ، ولا أعرف رجلا حظي بالإجماع والتقدير مثلما حظي به الدكتور أحمد الريسوني ، رغم إصراره الدائم على التخلص والاعتذار .

وفي الجمع العام الوطني لحركة التوحيد والإصلاح ببوزنيقة عام ٢٠٠٢ ، وكان أول جمع عام تعقده الحركة في مكان تعقده الحركة في مكان عمومي ، أعد الريسوني مرافعة مطولة للاعتذار عن مسؤولية قيادة الحركة أربع سنوات أخرى ، وهم بإلقائها والتشبث بمطلوبها ، لولا أن رأى برهانا من الأستاذ عبد الله باها ، الرجل الذي استطاع إقناعه بالعدول عن المرافعة والاعتذار ، فاستجاب وأناب مستمرا في القيادة رغم اعتلال صحته وتزايد انشغالاته العلمية والجامعية ، حتى جاءته فرصة الاستقالة فلم يضيعها .

تلك فرصة لم يبحث عنها الريسوني ولم ينتظرها عند انعقاد الجمع العام ، ولكنها جاءت على قدر . كانت المواجهة الإعلامية على أشدها بين الحركة وخصومها الاستئصاليين الذين ظلوا يؤججون النار وينفخون فيها ، وقبيل الأحداث الإجرامية ل ١٦ من ماي ٢٠٠٣ ، أجرت الصحيفة الفرنكوفنية « أوجوردوي لوماروك » حوارا مع الريسوني لم تمكنه من مراجعته ونشرته مبتسرا على الهيئة التي تريد ، وكان فيه أجوبة قالها بصفته العلمية وليس بصفته السياسية التنظيمية ، خاصة ما يتعلق بإمارة المؤمنين والفتوى ، فقامت العاصفة وتلتها الجريمة السوداء بالدار البيضاء يوم ١٦ من ماي ، فازدادت القضية تعقيدا ، وأصر الدكتور أحمد الريسوني على تقديم استقالته ليجنب الحركة مضاعفات الحوار وتداعياته التي تقاطعت مع العمليات الإجرامية . وكانت لحظات تاريخية عاشها المكتب التنفيذي لحركة التوحيد والإصلاح وعاشها معه أعضاء الحركة والمتعاطفون معها والمراقبون لها .

في تقدير الدكتور أحمد الريسوني والذين رافقوه وعرفوه ، لم تكن تلك الاستقالة وظروفها أصعب شيء في حياته ، بل هي بالنسبة إليه برد وسلام كما قال الدكتور فريد الأنصاري في تقديمه للحوار المطول الذي أجراه الريسوني تحت عنوان

« الحركة الإسلامية : صعود أم أفول » ضمن سلسلة حوارات . إنما أقسى اللحظات وأشدها معاناة لديه هي مرحلة توحيد حركة الإصلاح والتجديد ورابطة المستقبل الإسلامي في حركة التوحيد والإصلاح ، وما تزامن معها من إعادة التأسيس والبناء لحزب الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية الذي تحملت الحركة وقيادتها كامل أعبائه ، ثم ما تلا ذلك من قيادة للمرحلة الانتقالية عموديا وأفقيا ، تنظيميا وتصوريا . وتتجلى المعاناة الشديدة بقسوتها النفسية في الإنصات لجميع أطراف عملية التوحيد الداخلية والخارجية والموازنة بينها ، والحكم فيما بينها والفصل في المواضع التي تحتاج للفصل ، مع الأخذ بعين الاعتبار الطبائع النفسية المختلفة والأمزجة المتقلبة والمواقف المتعارضة والأرواح المختلفة والمؤتلفة ، بالإضافة إلى التحولات السياسية القطرية والدولية واستحضار وزن القوى المتحكمة في المغرب والحركات والجماعات الإسلامية به . وكل هذه العمليات الضاغطة احتاجت من الريسوني أن ينزل معارفه العلمية الشرعية والسياسية منزل التطبيق والتنفيذ ، وقد فعل وهو يسهر على تسيير مكتب تنفيذي فيه كثير من التشاكس وقليل من التجانس . وللمقارنة يمكن النظر إلى سير المكتب التنفيذي يومذاك وسيره حاليا حيث يسير بسهولة ويسر .

استطاع الدكتور أحمد الريسوني أن يخرج من هذه المعاناة محققا لإنجازين كبيرين للعمل الإسلامي بالمغرب : الأول توحيد حركتين وجماعتين إسلاميتين معتبرتين في حركة واحدة متماسكة ، والثاني انسياب الحركة الإسلامية – والتعبير للشيخ راشد الغنوشي رئيس حركة النهضة التونسية ـ في العمل السياسي بسهولة ويسر ومرونة واعتدال عن طريق حزب إسلامي قديم وهو حزب الحركة الشعبية الدستورية الديمقراطية بزعامة الدكتور المجاهد عبد الكريم الخطيب ، ليتخذ الحزب بعد ذلك اسما جديدا هو حزب العدالة والتنمية . وقد حاول الدكتور الخطيب غير ما مرة

إقناع الريسوني بقبول رئاسة الحزب خلفا له ، ولكنه كان دائما يعتذر ويمتنع بكل لطف ولكن بإصرار .

يرى كثير من الناس أن الدكتورأحمد الريسوني صار اليوم أكبر من حركة التوحيد والإصلاح ، وأنه ينبغي أن يكون لجميع المغاربة ولجميع المسلمين بالنظر إلى مكانته العلمية الرفيعة التي يعرفها القاصي والداني . فهل يمكن اعتبار الريسوني قد أنجز المهمة وأدى الأمانة وبلغ الرسالة ويمكن له بعد هذا أن يبتعد عن الحركة الإسلامية ، أم أن الحركة الإسلامية ما تزال في حاجة إليه ولأمثاله ؟

الحق أن الريسوني لا يرى هذا الرأي ، ويؤمن دائما أن الحركات الإسلامية بغير علماء في كل مستويات القيادة حركات معرضة للانزلاقات والانحرافات . لذلك تراه دائم النصح للعلماء بالانخراط في المشروع الإسلامي الكبير ، وبالبقاء في مواقعهم داخل الحركات والأحزاب الإسلامية ليؤدوا أماناتهم ، وتراه أيضًا دائم الانتقاد لغياب العلماء وابتعادهم عن شؤون المسلمين العامة ، والسياسة جماع كل تلك الشؤون . كما يلح الريسوني على أن يكون من مهام ووظائف الحركات الإسلامية إنتاج العلماء وصناعتهم وتدريبهم في الوقت الذي عزت الأرحام التي تلدهم وعطلت المختبرات التي تصنعهم وسدت في وجوههم مسالك التربية والتوجيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وبناء على هذا ، فإن تخريج العلماء الوارثين يصبح أكبر مسؤولية ملقاة على عاتق أمثاله من العلماء العاملين ، مع إبقاء العين ساهرة على خطوات الحركات الإسلامية ، فهل ينجح الريسوني في هذه كما نجح في تلك ؟

تلك هي المسألة .

الحسن السرات

في
الحركة والدعوة

الحركة الإسلامية
والتاريخ الذي لم يقع

لقد رحبت بالفكرة التي اقترحها الإخوة في هيئة التحرير بجريدة « التجديد » بفتح نقاش تقويمي عن الحركة الإسلامية المغربية [(١)] ، باعتبار ذلك عملا ضروريا لترشيد هذه الحركة وتطوير أدائها وإصلاح مواطن الخلل والتخلص من مظاهر الزلل في مسيرتها .

غير أن وضع الحركة الإسلامية في الميزان لا نبغي أن يتركز وينحصر في رصد النقائص والسلبيات ، ولا ينبغي أن يتحول من النقد الذاتي إلى الجلد الذاتي ، بل ينبغي أن يتم على منهج التوازن والعدل والإنصاف ، وذلك بإبراز المحامد والمآخذ عل حد سواء ، امتثالا لقوله تعالى : ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ ، وقوله : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ وقوله كذلك : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ .

فعلى هذا الأساس أحببت أن أسهم ، مع بداية هذا النقاش ، بما يمكن أن يعزز انطلاقته السليمة وسيره المتوازن البناء ، وذلك بالتنبيه على جانب من الموضوع قلما يتم الانتباه إليه وأخذه بعين الاعتبار في تقويم الأحداث والحركات ، وهو ما أسميته ب « التاريخ الذي لم يقع » . وأعني بالتاريخ الذي لم يقع في موضعنا ، ذلك

---

(١) كانت جريدة « التجديد » قد دشنت في بدايات إصدارها اليومي سلسلة من المقالات حول الحركة الإسلامية في المغرب تقويما وترشيدا تحت عنوان « الحركة الإسلامية في الميزان » ، وشارك فيها نخبة من الكتاب والمهتمين ، وهذه هي مساهمة الدكتور أحمد الريسوني (مدير الجريدة آنذاك) .

المسار الذي كان من المفروض أن يسلكه وتسير فيه الأحداث والتطورات لولا ظهور الحركة الإسلامية ولولا تأثيراتها منذ مطلع السبعينيات .

ولكي نستحضر في أذهاننا ونستوعب في تفكيرنا « التاريخ الذي لم يقع » خلال الثلاثين سنة المنصرمة ، علينا أن نتذكر ونستحضر ملامح الحالة المغربية خلال فترة الستينات إلى منتصف السبعينات ، وهي كما عشتها ووعيتها تتلخص كما يلي :

١ - سيطرت التوجهات الإلحادية واللادينية على النخبة المثقفة : ولا أعني أن عامة المثقفين أصبحوا ملاحدة أو لا دينيين ، ولكن الإلحاد واللادينية أصبحا حركة مهيمنة وطاغية على الطبقة المثقفة وعلى المناخ الثقافي ، وخاصة في المؤسسات التعليمية ، وبصفة أخص في الجامعة .

لقد التحقت بالجامعة في السنة الدراسية ٧٢ – ٧٣ ووجدت فكرة وعقيدة طلابية تقول « الاتحاد الوطني هو الممثل الشرعي والوحيد للجماهير الطلابية » ولكن الذي اكتشفته فيما بعد عند « الأوطميين »[١] هو أن الماركسية يومئذ كانت هي الدين الشرعي والوحيد ، المسموح به في الجامعة المغربية . وبمقتضى هذا الدين كان يمنع الأذان وتمنع الصلاة ، ويهاجم ويطرد من يقول : «باسم الله الرحمن الرحيم » ، وقس على ذلك .... لقد استسلمت الجماهير الطلابية وانساقت أو سيقت مع موجة الإلحاد والماركسية ، ومع الأفكار والمعتقدات واللادينية عموما . وكان هذا حاصلا أيضا في صفوف الأساتذة . وأصبح المتدينون – إن وجدوا – متخفين وخائفين ، لأنهم إن عرفوا سيسبون ويلعنون ، ويتهمون ويحاكمون ، ويوصفون بالرجعية والعمالة ، وبعرقلة التقدم والتقدمية ، وبترويج أفيون الشعوب ....

---

(١) نسبة إلى « أوطم » الاتحاد الوطني لطلبة المغرب ، الهيئة التي سيطر عليها الشيوعيون واليساريون حينا من الدهر فحاربوا واضطهدوا كل أشكال الدين والتدين في الوسط الطلابي .

تحت هذه السطوة وهذه السيطرة تربت وتخرجت أفواج وأفواج ، فاحتلوا مواقعهم في كافة الإدارات والمؤسسات العمومة التي كانت مبتدئة وفارغة . وبواسطة هؤلاء الخريجين انتقلت السيطرة والسطوة إلى المؤسسات التعليمية ، وأصبح الإلحاد الثوري موجة وموضة في الثانويات ، ينشرها الأستاذ والبرنامج الدراسي والكتاب المدرسي ....

تصوروا معي التاريخ الذي لم يقع ، ماذا لو استمر الأمر على هذا الحال وعلى هذه الوَتيرة إلى الآن ، أي حوالي ثلاثين سنة أخرى ؟

هذه واحدة .

٢- الأحزاب المغربية ، التي كانت في بدايتها مغربية حقا ، أي مسلمة وإسلامية ، هي أيضا خضعت للموجة اللادينية وتأثرت بها وسارت في ركابها ، على تفاوت في ذلك إلا من رحم ربك . وقد تمثل ذلك خاصة في الأحزاب والتنظيمات الشيوعية والاشتراكية ، فتناسلت وتنافست في هذا الاتجاه . وبعض الأحزاب الأخرى بدأت تتملص وتفك الارتباط ومع شعارتها وخطاباتها الإسلامية .

ويمكن هنا أن أشير إلى التجربة البئيسة لحزب الشورى والاستقلال . وقد حكى الأستاذ إدريس الكتاني حفظه الله عن تجربة الانتقال إلى اللادينية لدى هذا الحزب ، وذلك في كتابه القيم « المغرب المسلم ضد اللادينية » .

تصوروا معي ، ماذا لو استمرت الأحزاب المغربية تتحول وتسير في هذا الاتجاه ؟ ولكن هذا لم يقع .

هذه ثانية .

٣- لقد حورب العلماء - حماة العقيدة والشريعة ودعاة الدين والتدين -

حوربوا حربا شرسة وقذرة ، وحوصروا وهمشوا ، وغلبوا على أمرهم واستسلموا .

وتوقف تقريبا تكوين علماء جدد [١] . وهكذا دخل العلماء الذين صنعوا المغرب وحكموه على مر التاريخ . في طور الانكماش والانسحاب والانهزام . وأصبح انقراضهم ، أو انقراض دورهم مسألة وقت ، هو على كل حال ليس بالطويل . هكذا كان الأمر يسير .

تصوروا معي أن ماذا لو استمر هذا الوضع وسار نحو نتيجته المحتومة ، ماذا لو لم تأت الصحوة الإسلامية التي قلبت المسار ؟

وهذه ثالثة .

٤- التدين الفعلي في المجتمع ، كان آخذا في الشيخوخة والذبول . لقد أصبح التدين سلوكا متلاشيا ، وروتينيا تقليديا ، وشأنا من شؤون الشيوخ ، أو بعض الكهول بنسبة أقل ، أما تدين الشباب وخاصة منهم المثقفين ، فقد كان آخذا في التراجع متجها نحو الاختفاء . وباختصار ، جاءت الحركة الإسلامية فقامت بعمل لا يعلم قدره وفضله إلا الله تعالى . لقد قامت بتشبيب التدين ، وبتجديد التدين ، وبنفخ الروح في التدين . وبدأ الشباب بالمئات وبالآلاف يعودون إلى عقيدتهم وإلى ربهم وإلى دينهم وثقافتهم بعد أن اجتالتهم الشياطين .

تصوروا معي ماذا لو لم يقع هذا ؟ ماذا لو استمر المسار الآخر ؟ ماذا لو وقع التاريخ الذي لم يقع ؟

هذه المسارات كلها وأخرى غيرها ، كانت قد قطعت أشواطا ، وأصبحت جزءا بارزا من واقع المغرب ومن تاريخ المغرب . وكان من الطبيعي جدا أن تستمر وتمتد

---

(١) لم تكن آنئذ لا دار الحسنية ، ولا شعب الدراسات الإسلامية ، وكانت القرويين أقرب إلى الموت منها إلى الحياة .

وتشتد ، لولا لطف الله ، ولو دعاء من دعوا ويدعون : « اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادير » .

وباختصار مرة أخرى : جاءت الحركة الإسلامية فأربكت وغيرت هذه المسارات السوداء ، ولكن المعركة لازالت قائمة . والله غالب على أمره .

*****

في نقد الحركة الإسلامية :

الحركة الإسلامية
بين الدين الشرعي والدين الوضعي (١)

كثيرة هي المميزات الكبرى لهذا العصر ، فهو عصر الثورة الصناعية ، وهو عصر العلم والتقنية ، وهو عصر ثورة المعلوميات ، وعصر الفضائيات . وهو عصر العولمة والعالمية في كافة المجالات السياسية الاقتصادية والثقافية الإعلامية . وهو عصر ثقافة الديموقراطية وحقوق الإنسان ......

ومن المميزات الكبرى لهذا العصر أيضا أنه عصر الحركة الإسلامية ، التي اتسعت وتجذرت وانتشرت في العالم كله ، خاصة خلال العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين . وهي – في مجموعها – حركة واعية ، شاملة ، منظمة ، عالمية . بل إنها خلال السنين الأخيرة من القرن العشرين قد فاجأت العالم بامتدادها واشتداها في مناطق كانت مهملة منسية في الخريطة الإسلامية ، كالقوقاز ، والبلقان ،وجنوب شرق آسيا ، ونيجيريا وجنوب إفريقيا ... بل إنها في طريق أن تصبح رائدة واعدة في بعض الأقطار الغربية نفسها .

هذه الحركة الإسلامية لها نجاحات كبيرة ولها أيضا إخفاقات كثيرة . ولها ما يقابل ذلك من عناصر القوة والنجاح ومن عوامل الضعف والإخفاق .

ولقد خضعت الحركة الإسلامية للكثير من التحليلات والدراسات ، من أبنائها ومن أعدائها ،من مناصريها ومحاربيها ، وأيضا من باحثين مستقلين ، منصفين أو متحيزين ، تبعا لتكوينهم ومنطلقاتهم ومواقعهم .

وإذا كانت الحركة الإسلامية الحديثة جديرة بالمتابعة والفحص والتحليل والنقد ، لأسباب وأهداف عديدة : سياسية واجتماعية وأكاديمية .... ، فإنها جديرة قبل

ذلك كله بالدراسة والتقويم لأجل تنبيهها وترشيدها وتحسين أدائها وضمان المزيد من نجاحها .

في هذا السياق الأخير تأتي هذه الحلقات التي يجمعها العنوان العام « الحركة الإسلامية بين الدين الشرعي والدين الوضعي » ، أكتبها في خضم التجربة والمعاينة ، ومن صميم الممارسة والمعاناة .

الدين الشرعي والدين الوضعي ؟!

أما الدين الشرعي فواضح معلوم ، فهو المتمثل في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه ﷺ وما أجمع عليه العلماء مما هو مستنبط ومستلهم منهما .

أما الدين الوضعي – وهو بيت القصيد عندي – فأعني به المفاهيم والتصورات والتحليلات وما يتبعها في العمل والتطبيق من نظم وترتيبات ومواقف واختيارات ، مما هو قائم على محض الرأي والاجتهاد والاستحسان ، ومما هو مأخوذ من ثقافة البيئة ومعارفها وأعرافها ، ومما هو مكتسب اقتباسا وامتصاصا من هنا وهناك .

وهذا كله قد يناسبه اسم « دين » ، ولكني أسميه دينا في إحدى حالتين ، ومن باب أولى إذا اجتمعنا معا .

الحالة الأولى : أن يعتبره أصحابه دينا وجزءا من الدين ، بينما هو مما وضعه الناس وتواضعوا عليه فهو حينئذ دين ، لكنه دين وضعي .

الحالة الثانية : أن يضفي عليه أصحابه من التعظيم والتسليم والتقديم ما لا يكون في الحقيقة إلا مع الدين . فهذا أيضا يعد دينا ، لأنه يدين به أصحابه ويعاملونه معاملة الدين .

وقد نشأ عند عدد من الجماعات والتنظيمات الإسلامية غير قليل من هذا وذاك . فنجد عندها أشياء كثيرة تعدها دينا وما هي من الدين ، ولكنها تدين بها ، وتتكتل

عليها وتوالي وتعادي على أساسها ، وتخوض المعارك لأجلها .

كما نجد عندها اجتهادات وترتيبات ومواقف وتحليلات ، لا تعتقدها بالضرورة دينا ، لكنها تجعل منها ثوابت مقدسة ، وأركانها مؤسسة ، تعتصم بها وتستميت في الدفاع عنها والتعصب لها فتكون بذلك في منزلة الدين ، إن لم تكن – عمليا – مقدمة عليه .

وتسمية مثل هذه الأمور دينا ، هو من قبيل قول الله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ ﴾ فدين الملك قانونه الملتزم وشرعه المحترم .

*****

في نقد الحركة الإسلامية :

الحركة الإسلامية
بين الدين الشرعي والدين الوضعي (٢)

بينت في الحلقة الماضية ما أقصده بالدين الشرعي وبالدين الوضعي ، وأن الدين الوضعي هو كل ما يعتقد دينا ويتخذ دينا وهو ليس من الدين الحق في شيء ، وأنه هو مجموعة الأفكار والتصورات والنظم المعتمدة لدى جماعة من الجماعات ، إذا كانت تضعها موضع الثبات والتسليم وموضع التعظيم والتقديم ، وتجعلها غير قابلة للنقد والمراجعة والتغيير . فكل جماعة كانت متصفة بهذه الصفة أو تلك ، فقد صار عندها دين وضعي ، بالإضافة إلى دينها الشرعي ، والذي هو دين الله المنزل على نبيه ﷺ . وقد آن الأوان لكي أوضح ذلك وأمثل له .

قضية الخطوط الحمراء :

كثيرا ما نجد بعض التنظيمات الإسلامية تتخذ لنفسها ما تعتبره أو ما تسميه بالخطوط الحمراء ، وهي عادة ما تكون خطوط سياسية ، يقصد بها محظورات سياسية تحرم الجماعة على نفسها انتهاكها أو تجاوزها . فتصبح عندها محرمات سياسية ، بل إن هذه « المحرمات » تعد من الكبائر التي لا تساهل فيها ولا تسامح .

والخطير في هذه الخطوط الحمراء ليس هو أن تصبح من الأركان والثوابت التي لا تقبل المراجعة ، بل أيضا هو أن يحل هذا المصطلح الدخيل لفظا ومعنى ، الذي ليس له من مرجعية سوى النظر الفكري المحض والتقدير السياسي الظرفي ، وأن يحل محل المصطلحات الشرعية بمضامينها وبمرجعيتها . وهكذا بدل أن يفكر الناس بمنطق الحلال والحرام ، وبمنطق « قال الله » و « قال رسول الله » وبمنطق الموافقة والمخالفة لشرع الله ، يصبح تفكيرهم محكوما بمنطق الخطوط الحمراء

والخضراء، وبمرجعيتها السياسية وبواعثها النفسية .

وهكذا ، فإن من يكرهون السياسة والسياسيين يجعلون العمل السياسي خطا أحمر ، ومن يكرهون الحاكم وبطانته يجعلون من الاقتراب إليه ، أو التعاون معه ، أو الاتصال به ، أو بذكره بخير إذا أحسن ، أو وصفه بالإيمان والإسلام إذا كان كذلك ، يجعلون هذا كله خطوطا حمراء ، يكون انتهاكها مدعاة لأنواع من الاتهام والطعن والتجريح والتجريم .

تكفير الأنظمة والهيئات :

ومما يتخذه الكثيرون دينا ، وما هو من الدين في شيء ، بدعة تكفير الأنظمة الحاكمة ، والهيئات السياسية كالأحزاب وغيرها ، فيقولون : النظام الفلاني كافر ، والحزب الفلاني كافر ... ثم يرتبون على ذلك مجموعة من الأحكام والمواقف ....

والذي نعرفه في ديننا وشرعنا أن الإيمان والكفر هي مسألة تخص الأفراد . فالفرد بقلبه واعتقاده يكون مؤمنا أو كافرا ، مشركا أو منافقا ... وإذا كان هناك مجموعة أفراد على اعتقاد واحد ، فهو مؤمنون أو كفار ، أو مشركون ، أو منافقون . أما تكفير نظام حاكم ، أو حزب سياسي برمته ، فإذا أريد به الشخصية المعنوية ، ليس لها قلب ولا اعتقاد ولا إيمان ولا كفر . وإذا أريد به مجموعة الأفراد المنتسبين والعاملين في هذا النظام أو الحزب ، فيجب التأكد مما إن كانوا كلهم كافرين . والحال أن الأنظمة والأحزاب في البلدان الإسلامية يستحيل أن يكون كل أعضائها والمنسوبين إليها كفارا . بل الكفار فيها إن وجدوا يكونون قلة قليلة ، خاصة في عامة أعضائها والعاملين فيها والتابعين لها .

وإذا كان تكفير الهيئات والأنظمة متجها إلى أفعالها وممارساتها وقوانينها ، فهذا يقتضي أولا التحقق علميا مما إذا كان شيء من ذلك كفرا ، وثانيا إنما يكفر به من تبناه وآمن به . فقد يوجد عدد كبير ممن لا دلو لهم في ذلك ، أو ممن يكرهونه أو

ينكرونه ظاهرا أو باطنا ....

نعم يمكن وصف النظام والدولة والهيئة والمؤسسة بأنها إسلامية أو غير أسلامية ، لأن الوصف هنا لا يتعلق بالاعتقاد والقلوب ، وإنما يتعلق بالأفعال والنظم والمظاهر . وحتى في هذه الحالة قد يكون في الهيئة الإسلامية كافر أو كفار ، وقد يكون في الهيئة غير الإسلامية مؤمنون مسلمون .

الحظر على العمل السياسي :

هذا أيضا من المحرمات الثابتة عند عدد من الدعاة ومن الجماعات الإسلامية، فهو خط آخر من خطوطهم الحمراء ، وإنما أسمي ذلك تحريما لأنه صار عندهم محظورا ممنوعا ، بصفة دائمة أو إلى أجل غير مسمى .

ومن مشمولات هذا الحظر ومقتضياته ، تحريم تأسيس الأحزاب السياسية ، وتحريم دخول البرلمانات ، وتحريم المشاركة في الحكومات وكل هذه المحظورات يعتبرها بعضهم محرمات لذاتها ولما فيها من كفريات وبعضهم يراها محرمة ومنقصة في الدين وانحرافا عن طريق الدعوة الصحيح ، لما في ذلك من مفاسد ومن انشغال بالسياسة على حساب الدعوة ...

وبعضهم يستدل في هذا الباب بقاعدة « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » وبعضهم يستدل بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ .

والحقيقة أن هذه التحريمات والمستندات المعتمدة فيها إنما فهم للأمور على غير وجهها واستعمال للأدلة في غير مواضعها .

فالذي يدخل إلى مؤسسات فاسدة ، أو منحرفة ، أو مختلطة ، أو يختلط فيها الحق بالباطل والصالح بالطالح ، لكنه يدخل ليأمر بالمعروف ما أمكن ، وينهي عن المنكر ما استطاع ، ويحق من الحق ويبطل من الباطل قليلا وكثيرا ، وليكثر المصالح

ويقلل المفاسد ... فهذا مجاهد وقائم بالواجبات لا أنه واقع في المحرمات . وإنما يحاسب المرء بقصده وفعله لا بأفعال غيره ممن حوله ، ما دام كل ما يعمل على شاكلته . بل إن الذي يقول كلمة حق ويرد على كلمة باطل وهو في مثل هذه المواطن لهو خير وأعظم أجرا ممن يقولها في المسجد ، أو في مجلس علم ، أو مجلس وعظ ، أو في بيته أو في كتابه .

وقد يذهب بعض الدعاة إلى الكنيسة ، أو إلى الخمارة ، أو إلى نادي القمار ، أو إلى مقر جماعة لا دينية ، أو إلى غير ذلك من الأماكن والمواطن التي تعج بالمنكرات والانحرافات ، يذهبون للدعوة إلى الله والجدال بالتي هي أحسن والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، سواء استجيب لهم أو لم يستجب لهم . فكيف يجوز الأمر هنا ويستحب ويمجد ، ويكون هناك خط أحمر لا يجوز الوقوع فيه ؟! أليس هذا التناقض مجرد مظهر من مظاهر الاحتكام تارة إلى الدين الشرعي وتارة إلى الدين الوضعي .

إن التحريم هو أخص خصائص الله تعالى في التشريع ، لأنه تضييق على العباد وتقييد لتصرفاتهم وإلغاء لحريتهم . هذا حين يكون التحريم حقا وصوابا ، أما حين يكون تحريما بغير حق وبغير دليل ، فهو ظلم للعباد وإفساد لحياتهم . وكل هذا في حق العباد وشؤونهم . أما التحريم في مجال الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع عن دين الله وشرعه ، فهو تضييق ليس على العباد وحقوقهم ، وإنما هو تضييق على دين الله ودعوته ، في الوقت الذي تعاني فيه الدعوة من التضييق والحصار في كل مكان .

فلينظر هواة التحريم ودعاة الخطوط الحمراء أي منزلق ينزلقون ، وأي منقلب ينقلبون .

*****

في نقد الحركة الإسلامية :

بين فكر الحركة وحركة الفكر (٣)

الجماعات الإسلامية التي تأسست في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ولدت ونشأت وهي مسكونة بمواجهة التحديات الخطيرة التي تكالبت على الأمة الإسلامية وبلغت ذروتها خلال العقود الأولى من القرن العشرين الميلادي ، ولم تقف تلك التحديات عند حد تهديد الكيان السياسي والاستقلال الجغرافي لهذه الأمة ولأقطارها مشرقا ومغربا ، بل وصلت إلى تهديد الكيان الاجتماعي والديني لهذه الأمة .

من رحم هذه المخاطر والتحديات وفي أكنافها ولدت الحركة الإسلامية وتناسلت في مختلف الأقطار الإسلامية . ولذلك فهي قد ولدت في معمعة الصراع والتدافع والنضال . ومن هنا فإن معظم هذه الحركات – إن لم تكن كلها – قد ركزت على تكوين الدعاة المجادلين والجنود المجادلين والمجاهدين المضحين ، ولم تركز على تكوين العلماء والمفكرين والباحثين . وإنما ظهر من ظهر من هؤلاء في صفوفها عرضا إن لم نقل خطأ . وهكذا تشكلت الحركات الإسلامية في قياداتها وصفوفها واهتماماتها وأولوياتها على أساس هموم الدعوة والتربية العملية ، وعلى أساس الجهاد والجندية وما يتطلب ذلك من بذل وتضحية .

وعلى هذا المسار وهذا الدرب سار للحركة الإسلامية فكر وتنظير فكري وإنتاج فكري ، لكنه فكر في خدمة الحركة ومتطلبات المعركة ، فكر يدافع عن خط الحركة وعن مواقف الحركة وعن تعليمات الحركة وعن اختيارات الحركة وعن مصلحة الحركة . فكر يواجه ما هو يومي وينهمك فيما هو آني ، وينضبط للتوجيهات والتعليمات والمتطلبات . فهذا هو « فكر الحركة » ، وهو في الحقيقة أقرب إلى ما

يسمى – بصفة عامة – بالفكر الحزبي أو العقلية الحزبية . وفكر الحركة بهذا المعنى هو فكر موجه وتابع ومقيد ، سواء في قضاياه وموضوعاته أو في مواقفه واختياراته .

وبسبب أن هذا اللون من الفكر هو الذي ساد أوساط الحركات الإسلامية وخيم على عقول أبنائها وحتى زعمائها ، فقد عجز فكر الحركة هذا على عن مواكبة التطورات والمستجدات ، سواء داخل الحركات الإسلامية نفسها أو فيما حواليها . وعجز من باب أولى عن أن يكون هو صانع التطورات ومبدع الاجتهادات .

وفي كثير من الأحيان وجدنا التنظيمات الإسلامية تضيق وتتبرم من ذوي الفكر المتحرر والمبادرات الاجتهادية التجديدية حتى وهم من أبنائها وصفوفها ! ومن هنا بدأ يظهر ذلك التمايز والتدافع بين كل من « فكر الحركة » و « حركة الفكر » .

إن الحركة الإسلامية التي ظهرت وبدأت أقرب إلى أن تكون « حركة تحريرية » وكانت بحاجة ماسة إلى فكر نضالي منضبط ومتمذهب باختياراتها ، وقد أصبحت اليوم مدعوة وملزمة بأن تكون حركة اجتهادية تجديدية ، في نفسها وفي مجتمعها ، فلذلك أصبحت في أمس الحاجة إلى الفكر الحر وإلى الفكر المبدع ، فهي بحاجة إلى أن تطلق وتدفع « حركة الفكر » من غير خضوع وتبعية لفكر الحركة .

إن حركة الفكر إذا فرضت عليها الطاعة والانضباط فقد حكم عليها بالجمود والانحطاط .

وأنا الآن أتذكر حادثة طريفة ومعبرة ، أختم بها هذه الحلقة ، وهي أن أحد المفكرين المغاربة حكى لي بعد عودته من مؤتمر لإحدى الحركات الإسلامية ما عاناه من تضايق وتضييق وضغط ، لمغادرة المؤتمر ، بسبب بعض آرائه التي لا تناسب « المقام » . حتى إنه قال لهم غاضبا ومقاطعا : إن النظام المغربي يعطينا من

حرية التعبير والنقد أكثر بكثير مما تعطوننا أنتم » !

*****

الدين للجميع ... فالدعوة للجميع

دين الله تعالى هو كرامته ورحمته الموجهة لعباده أجمعين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . لذلك فإن الدعوة إلى هذا الدين ونشر عقائده وأخلاقه وأحكامه ، وتربية الناس على ذلك ، هي أعمال وجهود يجب أن تتوجه إلى الناس أجمعين وتفتح أبوابها للناس أجمعين بدون تمييز ولا تفضيل .

- فدين الله ودعوته حق للنساء بقدر ما هي حق للرجال .
- وهما حق للصغار مثلما حق للكبار .
- وهما حق للأميين على حد سواء مع المتعلمين والمثقفين .
- وهما حق لأهل البوادي بقدر ما هما حق لأهل الحواضر .
- وهما حق للفقراء والمساكين وللأثرياء والميسورين بقدر ما هما حق للمتوسطين .
- وهما حق للمنحرفين والمبتلين مثلما هما حق للمصلين المتدينين وللمريدين السالكين .

وبهذا يظهر الغلط الشنيع والخلل الفظيع حينما نجد بعض الدعاة والمهتمين بالدعوة والعاملين في صفوفها يحصرون أعمالهم وجهودهم في أوساط الرجال دون النساء ، أو يركزون على المثقفين والمتعلمين دون العوام والأميين ، أو يهتمون بالشباب ويهملون الشيوخ والأطفال ، أو يشتغلون في العالم الحضري وينسون من حوله من أهل العالم القروي ولو كانوا أعمامهم وأخوالهم وأصهارهم ، أو يتوجهون إلى المتدينين ورواد المساجد ويسقطون من حسابهم رواد المقاهي والملاهي

ولو كانوا إخوانهم وأقرباءهم وزملاءهم .

وإذا كان الناس من حقهم أن يشتكوا ويقاضوا من ظلموهم وهضموا حقوقهم في الدقيق والماء والكهرباء والعلاج والتشغيل ... فإن حقهم أحق وأعظم في أن يشكوا ممن ظلمهم وصرف عنهم دعوة الله ودينه ، وهدايته ورحمته لخلقه ، فحرمهم من التعليم والتفقيه ، ومن التربية والتزكية ، بينما قد صرف ذلك وأتاحه وبلغه إلى غيرهم ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴾ .

وقصة رسول الله ﷺ مع عبد الله بن أم مكتوم قد أصبحت قصة خالدة بواقعتها وساطع دلالتها . فقد كان رسول الله ﷺ مشغولا مع أحد الكبراء يعرض عليه الإسلام ويشرح له دعوته ويرجو استجابته . وفي هذه الأثناء جاءه أحد ضعفة المسلمين ابن أم مكتوم الأعمى يسأل عن بعض أمور دينه ، فتضايق منه رسول الله ﷺ وأعرض عنه ، واستمر في جهده مع الزعيم القبلي رجاء إسلامه الذي كان يفترض أن يكون له أثر كبير ونفع عميم ، فأنزل الله هذه الآيات الخالدات يعاتب فيها نبيه ورسوله ﷺ ويصحح له الوجهة الدعوية ، يقول الله سبحانه وتعالى في سورة عبس : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾ فكانت هذه عبرة بالغة وحكمة باقية ، وهي أن دين الله للجميع وأن دعوة الله للجميع ، وليس أحد أولى فيها وبها من أحد ، إلا بمدى رغبته ومدى إقباله واستعداده .

فهذه هي الوجهة القويمة والسليمة لدعوة الإسلام ، تتوجه للجميع وتتاح للجميع ، بدءا بالأقرب فالذي يليه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ثم ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ثم ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ .

*****

الدين والتدين .... داء أم دواء ؟! (١)

الدين اليوم - وخاصة الإسلام - يشغل الناس أكثر من أي وقت مضى . لقد شغل الإسلام الناس عند ظهوره ، حتى كان العرب من شتى قبائلهم يتواصون : احذروا فتى قريش حتى لا يفتنكم ... ، ثم شغل بعد ذلك جيران العرب – من فرس وروم – حين أصبح له شأن ... ، ثم شغل أوروبا حين عبر البحر وبدأ هلاله يلوح في أفقها ...

لكنه اليوم يشغل الناس على نحو لم يسبق له مثيل ، فهو يشغل الداني والقاصي على حد سواء ، وهو يشغل أبناءه وأعداءه على حد سواء ، وهو يشغل الخائفين منه والخائفين عليهم أجمعين ، وهو يشغل الدعاة والولاة جميعًا ، وهو يشغل الدارسين والباحثين ، من مؤرخين ، وأنطروبولوجيين وسوسيولوجيين ، وإسلامولوجيين ، وغيرهم ...

ويشغل ـ كما تعلمون ـ الأجهزة الأمنية ، والأجهزة القضائية ، والأجهزة الإعلامية ، وحتى الأحزاب السياسية .

ومنذ عقود ألف القاضي عبد القادر عودة كتابا لطيفا سماه « الإسلام بين جهل أبنائه وكيد أعدائه » ، وما زال هذا العنوان صالحا لوصف حالة الانشغال بالإسلام اليوم ، ولو بصورة إجمالية .

- فهناك من ينشغلون بالإسلام ، ويشتغلون بالإسلام ، وهم له جاهلون ، ولحقيقته مضيعون ، فيسيؤون إليه من حيث أرادوا خدمته ونصرته .

- ومن أبناء الإسلام والمسلمين أيضا ، من يؤمنون بالإسلام ويقبلون أنهم مسلمون ، ولكنهم لا يريدون من الإسلام أن يتدخل في حياتهم وحريتهم ، ويرون

عند المتدينين مبالغة وفائضا في التدين ، فيحسون بالضيق والتبرم والضجر من هذا الإسلام المتشدد .

وإذا كان هذا الاهتمام بالمبالغة ، لا يخلو هو نفسه من المبالغة ، أو هو عين المبالغة ، فإن أيضا لا يخلو من بعض الحقيقة وبعض الصواب .

فهناك من المتدينين وبعض دعاة الإسلام ، من جعلوا من الدين شيئًا ثقيلًا مزعجا ومحرجا ، ولا يتركون فرصة للتحريم والتشديد والتنطع إلا ركبوها وأعملوها .

بل وهناك من أهل الدين والتدين أنفسهم من لا يرون في الدين سوى أنه تكليف وإلزام وإكراه للناس ، وحملهم على المكاره والمضايق ، تعبدا وعبودية لله تعالى ، وتقربا إليه وطلبا لما عنده في الدار الآخرة ، بعبارة أخرى ، يرون أن الدين إنما هو « محنة دنيوية » من أجل « منحة أخروية » وهذا كل ما في الأمر .

في الجهة الأخرى ، هناك من لا يرون في الدين وأهله ، سوى منافس سياسي وخصم أيديولوجي ، فلا بد من حلول جذرية ، سياسية وثقافية وفكرية مضادة . ومن هنا انبثقت العبقرية اللادينية عن سياسة « تجفيف المنابع » و سيلة « الاستئصال الثقافي » وعن يمين هؤلاء — أو عن شمالهم لا فرق — يوجد من لا يرون في التدين وأصحابه ودعاته ، إلا مشكلة أمنية ، واقعة أو متوقعة . حتى إن البوليس المصري عنده رؤية معروفة للموضوع ، مفادها أن كل ظاهرة تدين فوق عادية ، وكل شعبية تنالها هيئة دينية أو شخصية دينية ، فهي تعني وجود « حالة حمل » ، وأن المولود لا بد أن يكون حركة متطرفة ومشكلة أمنية ، ومن هذا الباب منعوا الداعية المربي عمرو خالد ، وطردوا الداعية الآخر الحبيب الجفري ، رغم إيمانهم بأنهما يمتصان الغضب والاحتقان والتطرف ، وأنهما يقدمان إسلاما ناعما لينا هينا ...

وعلى هذا النهج ظهرت نظرية بعض السياسيين والمفكرين الغربيين التي تقول : إن كل مسلم هو مشروع إسلامي ، وكل إسلامي هو مشروع متطرف ، وكل متطرف هو مشروع إرهابي ، والنتيجة هي : إذا أردت محاربة الإرهابيين فحارب المتطرفين ، وإذا أردت محاربة المتطرفين فحارب جميع الإسلاميين ، وإذا أردت محاربة الإسلاميين ، فحارب المسلمين وخاصة المتدينين .

وإذا أردت محاربة المسلمين المتدينين ، فحارب الإسلام نفسه ، وإذا أردت محاربة الإسلام فابدأ بالقرآن ....

أمام هذه الصور والتصورات ، ما هي حقيقة الإسلام ؟ وما هي حقيقة الدين والتدين ؟ هل الدين نقمة أو نعمة ؟ هل الدين مشكلة أو حل للمشكلة هل الدين أمن واطمئنان أو مشكلة أمنية ؟هل الدين داء أو دواء ؟

*****

الدين والتدين .... داء أم دواء ؟ (٢)

استعرضت في الأسبوع الماضي عدة صور عن الدين والتدين ، وهي تصورات تضر بالدين ، بقدر ما تضر بالبشرية ، حين تحرمها من التصور الصحيح السليم للدين ورسالته ، وللتدين وقيمته ، وإذا كنا بصدد تحديد رسالة الدين وجوهره وحقيقته وبصدد تصحيح صورته وتصوره ، فإن ذلك لن يكون مقبولا وحاسما إلا باعتماد المباشر على ما نطق به الدين نفسه . ولذلك لن يكون مقبولا وحاسما إلا باعتماد المباشر على ما نطق به الدين نفسه . ولذلك سأقتصر على سوق نصوص الدين وتقديمها للناظرين . والقرآن الكريم هو مجمع الديانات وخاتم الرسالات ، فحسبنا بعض نصوصه المعبرة عن خطاب الله تعالى وقصده وإرادته من إنزال دينه ووضع شريعته ، فلنقف عليها ولنقف عندها ، فهي كافية شافية :

الدين هداية ونور :

أول ما بعث لأجله الرسل وأنزلت لأجله الكتب ، هو أن يكون الناس على بصيرة وعلى هدى ، وعلى نور من ربهم ، يعرفون الحقائق الكبرى المتعلقة بخلقهم ، وغاية وجودهم وحياتهم ، وما بعد حياتهم وموتهم ، فهذه هي الغاية الأولى والأساس لإنزال التوراة والإنجيل والقرآن ، وسائر ما أنزل الله لعباده :

- ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

- ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٦٦] .

- ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران : ١ - ٣] .

- ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة : ١٥-١٦] .

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس : ٥٧] .

الدين تزكية واستقامة :

الهداية تقود إلى الاستقامة ، ومعرفة الحق تدعو إلى اتباعه ، ومجيء النور إنما هو للاستنارة به ، وإنما هو للإبصار والاعتبار ، وهنا يأتي العنصر الثاني من العناصر المكونة لماهية الدين ورسالته : استقامة وارتقاء ، وتزكية ونماء ، وصلاح وإصلاح ، بهذا بعثت الرسل ، وبهذا أنطقت الكتب :

- ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ .

[الأعلى : ١٤- ١٩]

- ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس : ١٠] .

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة : ٢] .

- ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء : ٩] .

- ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف : ٣٠] .

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

[الأحقاف : ١٣]

- ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت : ٦] .

الدين رحمة ومصلحة وسعادة

- الله تعالى غني عن عباده وسائر خلقه ، غني عن إيمانهم وعبادتهم وأعمالهم ، لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية . وإنما يريد من دينه وشرعه ، أن يكون الناس على ما هو أرقى وأزكى ، وما هو خير لهم ورحمة ، وسعادة وسكينة . ولذلك فهو سبحانه لا يريد بهم عنتا ولا مشقة ولا عسرا ، بل يريد لهم عكس ذلك كله .

- ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

- ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة : ١٢٨ : ١٢٩] .

- ﴿ طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه : ١-٢] .

- ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٣ - ١٢٤] .

- ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

[الأعراف : ١٥٧]

- ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥] .

*****

واجعلوا بيوتكم قبلة

قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٨٧] .

لست أريد إلى تفسير هذه الآية . ولا استنباط حكمها الخاص المحدد الذي خوطب به بنو إسرائيل من خلال موسى وأخيه عليهما السلام ، وإنما اقتبس من الآية الكريمة لفظها مغزاها ، وهو أن على أهل الإيمان وأهل الدعوة أن يجعلا بيوتهم في خدمة إيمانهم ودينهم ودعوتهم .

وإذا كان الله تعالى قد شرع وأمر منذ زمن سحيق أن تجعل البيوت قبلة يؤمها المصلون ويتكتل الموحدون ، فإن الرسالة المحمدية الخاتمة الموجهة إلى العالمين وإلى الناس أجمعين ، قد فتحت الأبواب والآفاق بلا حدود من أجل إقامة الدين ومن أجل الدعوة إليه والجهاد في سبيله ومما يشير إلى ذلك . على سبيل المثال . « **أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي :**

- **نصرت بالرعب مسيرة شهر**
- **وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا ، فأيا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل .**
- **وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لغيري .**
- **وأعطيت الشفاعة .**
- **وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة** »

فالإسلام دين الأبواب المفتوحة والمزايا الممنوحة .

له هيبة تسبقه وتمهد له الطريق ، والأرض كلها وسيلة لطهارته ومجال لصلاته ، وفضاء لإعلانه وإظهاره ، لأنه رسالة إلى الناس كافة .

وفي هذا السياق على هذا الأساس ، أعود إلى عنوان هذه الكلمة لأقول : إذا كنا اليوم في زمان العولمة والعالمية ، وفي زمن أصبح فيه العالم بلا حدود والاتصال والاختراق بلا قيود ، فإن على أهل الإسلام . أكثر من أي وقت مضى . أن يجعلوا بيوتهم قبلة ومدرسة ومنتدى ، يستقبلون فيها العلماء والمتعلمين ، والدعاة والمدعوين ، والذاكرين والمذكرين من الأصدقاء والجيران ، ومن الأقارب والمعارف ، ومن كل الراغبين والمستجيبين .

إن فتح البيوت واتخاذها قبلة للدعوة والوعظ والإرشاد يجسد ويحقق أهدافا وقيما جليلة منها :

١- زكاة هذه البيوت ورفعها ، فالدعوة والذكر والعلم وسائر الفضائل تجعل بيوتنا متشبهة ببيوت الله عز وجل .

٢- تحصينها وتحصين أهلها ، باعتبارهم أول المستفيدين .

٣- تحقيق يسر الإسلام بحيث يتاح لجميع الناس ، وفي كل كان ، ويعرض عليهم ويبين لهم قريبا منهم غير بعيد ، لا يستثنى من ذلك غني ولا فقير ، ولا صغير ولا كبير ، ولا ذكر ولا أنثى .

٤- فتح آفاق للدعوة والتوعية والتربية ، تكافئ إلى حد ما الاختراق الكاسح للدعوات المنحرفة التي تأتينا من كل حدب وصوب ومن كل فج قريب أو بعيد .

*****

ويسألونك عن الفتور
قل هو من عند أنفسكم

يقول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران [١٦٤ - ١٦٥] ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

من بين ما تضمنته الآيتان الكريمتان أن الإسلام الذي أرسل إلى الناس ودعوا إلى الإيمان به والعمل بما فيه ، إنما هو هدية ونعمة ومنة تفضل بها الباري سبحانه على عباده عامة ، وهدى إليها ووفق للأخذ بها بعضا منهم خاصة : فإرسال الإسلام ورسوله إلى الناس نعمة ومنة ، وتوفيقهم إلى الإيمان والعمل منة ونعمة إضافية أخرى .

والمؤمن حين يجعله الله تعالى من أهل النعمتين وأهل المنتين ، فيبصر ويهتدي ، ويترقى ويتزكى ، ثم يأتي عليه وينالـه ما يكره ، فعليه أن يلتفت إلى نفسه ويعيد النظر في تصرفاته ، وأن يفتش عن خطئه ، وعن مواطن خلله ، لا أن يحمل المسؤولية لغيره ويتهم الظروف من حوله .

صحيح أن الله تعالى على كل شيء قدير كما نصت الآية ، ولكنه سبحانه يعطي كل واحد ما يستحقه ، ويوفق - أو لا يوفق - كل واحد بحسب نيته وهمته ، وبحسب تسببه وتصرفه . « **فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه** » كما جاء في الحديث الشريف .

فعلى هذا الأساس نفهم بعض الظواهر المتمثلة في الفتور الذي يصيب بعض الناس في تدينهم ، أو في أعمالهم الدعوية ، أو في التزاماتهم الجماعية ، وخاصة حين يصبح هذا الفتور انحدارا مستمرا ، وانقلابا في حياة الفرد وسلوكه . وأيا ما كانت درجة الانحدار والانقطاع إذا اتصل واستمر ، فإن الخلل لا بد وأن يكون في الشخص نفسه ، في فهمه واعتقاده ، أو نفسيته وعقليته ، أو في تفريطه وسوء تصرفه .

فمن الناس من يرى نفسه قد أبلى البلاء الحسن وقدم الكثير ، وأنه بحاجة إلى أن يخفف عن نفسه ، ولم ينظر في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [المدثر : ٦] .

ومن الناس من يتوقع أن الدعوة والجهاد جولة ، ثم تعقبها صولة ودولة ، جاهلا أو ناسيا أن « **الجهاد ماض إلى يوم القيامة** » .

ومن الناس من يغفل عن الدار الآخرة وعن خطورة شأنها وشأن نعيمها وجحيمها ، فيستبطئ حلولها ويخف عندها وزنها وأثرها .

ومن الناس من يفرط في التحصينات ويفتح على نفسه الثغرات ، فإذا به يتدحرج في الدركات .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] .

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ .

[الأعراف : ١٧٥ – ١٧٦]

*****

قيام الليل وقيام النهار

في القرآن الكريم سورتان متشابهتان ومتجاورتان في الزمان والمكان، هما سورة المزمل وسورة المدثر. فأما تشابههما فحسبنا منه التشابه اللفظي والمعنوي في الاسم المأخوذ من نداء الافتتاح لكل منهما ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ وكذلك ابتداء كل منهما بالأمر بالقيام.

وأما تجاورهما في الزمان فهو نزولهما متتابعتين أو متقاربتين ضمن أول ما نزل من القرآن الكريم. وأما تجاورهما المكاني فأعني به تتابعهما في ترتيب السور بالمصحف الشريف، مع أن كثيرا من سور القرآن وآياته تتابعت عند النزول وتباعدت عند الترتيب.

ما أريد الوقوف عنده في أمر السورتين الكريمتين هو الأمر بالقيام الوارد في مطلع كل منهما:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ﴾.
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

أمران بلفظ واحد، لكن في اتجاهين مختلفين. أما الأمر الأول: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ فقد أصبح له شأن وذكر في الدين والتدين، وفي التعبد والتقرب، وفي التربية والتزكية وأصبح له اسمه الخاص به الدال عليه بلا غموض ولا التباس، وهو «قيام الليل».

وأما الأمر الثاني ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ فلم يحظ بشيء مما حظي به الأمر الأول، ولذلك فهو قصدي في هذه الورقة من «أوراق التجديد».

لقد كان المفروض بالنظر إلى سورة المدثر ومطلعها، ومقارنتها مع شقيقتها

سورة المزمل ومطلعها ، أن نتحدث عن « قيام النهار » مثلما نتحدث عن « قيام الليل » وإذا كان مضمون قيام الليل هو الصلاة والذكر والتلاوة ﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل : ٢-٤] فإن قيام النهار هو الدعوة بكل صيغها وما تتطلبه من مجاهدة ومكابدة ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدثر : ٢-٧] وسورة المزمل التي جاءت بقيام الليل هي نفسها لم تلبث أن وجهت الأنظار إلى قيام النهار قبل أن تصرح به شقيقتها المدثر . فبعد قوله تعالى تنويها بقيام الليل وأهميته ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ [المزمل : ٦] أضاف سبحانه ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ [المزمل : ٧] .

قال العلامة ابن عاشور يوضح مغزى هذه اللفتة القرآنية (فيتحصل من المعنى : قم الليل ، لأن قيامه أشد وقعا وأرسخ قولا ، ولأن النهار زمن فيه شغل عظيم لا يترك لك خلوة بنفسك ، وشغل النبي ﷺ في النهار بالدعوة إلى الله وإبلاغ القرآن وتعليم الدين ومحاجة المشركين وافتقاد المؤمنين المستضعفين فعبر عن جميع ذلك بالسبح الطويل) التحرير والتنوير ج ٢٩ – ص ٢٦٢ .

وكما كان رسول الله ﷺ يشغل جزءا من ليله في قيام لله ، فقد كان يشغل عامة نهاره بقيام النهار ، وفي مواجهة المناوئين له المتكتلين ضده ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن : ١٩ – ٢٠] .

وإذا كان « قيام الليل » له ماله من عظيم الفضل وعظيم الأثر في التربية والتزكية فإن حكمه في الدين يبقى في حدود الندب والترغيب ، ويبقى مجاله الزمني في حدود جزء من الليل يزيد أو ينقص ، أما « قيام النهار » ، بما هو دعوة وتبليغ ، ومجاهدة

ومكابدة ، ومجادلة ومجالدة ، يتضمن عددا من الفرائض والواجبات فضلا عن مندوباته ومستحباته ، لذلك فهو ألزم وآكد ، ولذلك كان زمانه والقيام به « سبحا طويلا » .

إننا اليوم ــ وفي هذه الأيام بالذات ــ بحاجة إلى إحياء قيام النهار واستعادة مكانته وفاعليته . إننا بحاجة إلى قيام الدعوة مثلما نحن بحاجة إلى قيام الدعاء . إننا بحاجة إلى الأعمال المكونة لقيام النهار (قم : فأنذر – وربك فكبر – وثيابك فطهر – والرجز فاهجر – ولا تمنن تستكثر) مثلما نحن بحاجة إلى الأعمال المكونة لقيام الليل (الركوع – السجود – التلاوة – الذكر – الدعاء) . بل الأعمال الأولى هي أوجب في الشرع وآكد في الواقع .

*****

وهدوا إلى الطيب من القول

ذكر الله تعالى بعض ما أكرم به أهل جنته وبعض ما خصهم به من ألوان التكريم والتعميم فقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج : ٢٣-٢٤] .

والامتنان من الله سبحانه بنعمة الهداية إلى الطيب من القول ، إنما هو تنبيه على فضل هذه المزية وشرف هذه الخصلة في ميزان الله تعالى .

وإذا كان المؤمنون المسلمون عموما يحتاجون إلى هذه الصفة وإلى هذا الخلق في الدنيا قبل الآخرة ، فإن أهل الدعوة إلى الله أشد احتياجا إليها وتوقفا عليها في نجاح دعوتهم وعلاقاتهم .

وكما أن الداعية لا يصبح داعية حقيقة إلا حين تصير الدعوة سجية وبداهة ، فإنه لا يكون مقبولا وناجحا إلا حين يكون طيب الكلام وحسن الخطاب له سجية وخلق كذلك .

فالكلام المؤدب والخطاب المهذب مفتاح من مفاتيح النجاح في كافة المعاملات والعلاقات ، دعوية أو دنيوية ، أو سياسية ، أو اجتماعية ، بل لا أراني مبالغا إذا قلت : إن حسن الخطاب ركن من أركان النجاح وركن من أركان الشخصية الناجحة ، ولنتأمل كيف أن الله عز وجل قد جعل حسن القول مما يأخذ فيه العهد والميثاق على عباده . قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣] قال القرطبي في تفسيره (٢/ ١٦) « فينبغي للإنسان أن يكون قوله للناس لينا

ووجهه منبسطا طلقا ، مع البر والفاجر ، والسني والمبتدع من غير مداهنة ، ومن غير أن يتكلم معه بكلام يظن أنه يرضى عن مذهبه ، لأن الله تعالى قال لموسى وهارون ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه : ٤٤] . فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون ، والفاجر ليس أخبث من فرعون ، وقد أمرهما الله باللين معه ، وقال طلحة بن عمر : قلت لعطاء : إنك رجل يجتمع عندك ذوو أهواء مختلفة ، وأنا رجل في حدة ، فأقول لهم بعض القول الغليظ ، فقال : لا تفعل ، يقول الله تعالى : ﴿ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ [البقرة : ٨٣] ، فدخل في هذه الآية اليهود والنصارى ، فكيف بالحنيفي » .

وقد أمر الله تعالى خاتم أنبيائه ﷺ أن يجدد ويؤكد الدعوة والوصية بالتزام حسن الخطاب ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء : ٥٣] .

وفي هذه الآية فائدتان إضافيتان على ما تقدم :

الفائدة الأولى : أن الله تعالى هنا أمر بقول ما هو « أحسن » وليس فقط ما هو « حسن » ، فإذا كان أحدنا بين قولين أحدهما « حسن » والآخر « أحسن » فالواجب عليه أن يختار « الأحسن » ويقول : « الأحسن » ، ومن باب أولى يجب عليه أن يترك ويتحاشى ما ليس حسنا ، مما هو سيئ أو بذيء أو رديء .

والفائدة الثانية : هي أن الشيطان يتربص ويترصد الفلتات والهفوات ، ليحرك بها الظنون ، ويوغر بها الصدور ، ويغير بها النفوس ، فإذا التزم المتكلم غاية الأدب واختار أحسن القول ، سد الأبواب على نزغات الشيطان ، وقطع الطريق على الحزازات والحساسيات .

*****

ادفع بالتي هي أحسن

هذه قاعدة من قواعد الشرع في التعامل والتخاطب مع الناس ، وتتمة بيانها قوله تعالى ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت : ٣٤] فهي قاعدة عامة في حسن التعامل ، وفي أحسن المسالك لتجاوز العداوات والخصومات والصدمات ، سواء كانت لأسباب دينية أو دنيوية ، وسواء كانت مادية أو معنوية أو نفسية .

ففي جميع الحالات ، فإن الشرع يأمر ويوجه إلى « الدفع بالتي هي أحسن » ، أي بالطريقة المؤدبة المهذبة ، وبالطريقة التي ألطف وأنظف . فبهذه الطريقة نتجاوز العداوات ونتلافى الخصومات ، وبهذه الطريقة يتحول الأعداء إلى أولياء ويتحول الخصوم إلى أصدقاء ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ .

هذه القاعدة السلوكية ، وإن كانت عامة في العلاقات والمعاملات ، إلا أن لها صلة حميمة بالدعوة والدعاة . وسياقها القرآني يدل على ذلك ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت : ٣٣ – ٣٤] .

و(التي هي أحسن) بقيت عامة مجملة من غير تحديد ولا تقييد ، وبقي تقدير ذلك بحسب الحالات والمجالات ، وبناء على ما وضعه الشرع وأرشد إليه من آداب في التعامل والتخاطب .

وإنها بقيت هذه الطريقة الموصوفة بأنها (التي هي أحسن) عامة لكي نختار « الأحسن » لكل حالة بحسب ما يليق بها ، وبحسب ما نستطيعه وتبلغه أخلاقنا وإمكاناتنا ، فالمهم هو أن ندفع ونتعامل ونعالج أمورنا « بالتي هي أحسن » .

وليس أبلغ تأثيرا في النفوس ولا أكثر إفحاما للمخالف ، من أن يراك تخاطبه وتعامله وتجادله ليس فحسب بما هو حسن و « بطريقة حسنة» ولكن « بالتي هي أحسن » .

إن التعامل بطريقة حسنة – شكلا ومضمونا – يمكن أن تقيم به الحجة وتبرئ به الذمة ، ولكن التعامل « بالتي هي أحسن » يجعل الذي ﴿ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ ، فكيف بالذي ليس بينك وبينه عداوة ولا خصومة ، وإنما مجرد معاملة عادية ودعوة راقية ، فهذا أحق « بالتي هي أحسن » وأسرع إلى الإجابة والهداية ، وإلى الإنابة والولاية .

وهذه القاعدة العظيمة من قواعد الشرع – قاعدة الدفع بالتي هي أحسن – قد ورد ذكرها والأمر بها في مجال الدعوة خاصة ، في موضع آخر ، وذلك في قوله عز وجل : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] . وفي قوله سبحانه ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت :٢٩] .

إن الأخذ « بالتي هي أحسن » في مجال الدعوة إلى الله وإلى دينه وشرعه ، هو بمثابة « كلمة السر » التي بها تفتح الأبواب ، بل تفتح القلوب والعقول ، وتنشرح الصدور والنفوس .

وإن التعامل والتخاطب بغير حسن ولا أحسن قد يكون نوعا من الصد عن سبيل الله ، ونوعا من التنفير من دين الله ، وهو ما نهى عنه رسول الله ﷺ في قوله : « **يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا** » .

*****

القيام بالدعوة بين النية والسجية

الدعوة إلى الله وإلى دينه وشريعته هي واحدة من أهم العبادات ومن أعظم القربات إلى الله تعالى، وهي ركن من أركان الدين والتدين . ومن هنا وجب أن تكون خالصة لله سبحانه، امتثالا لأمره، وحبا في اهتداء الناس إليه، واحتسابا للأجر لديه . ولهذا كان جميع الرسل والأنبياء يعلنون في أقوامهم ﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٩] . فالقائم بعمل من أعمال الدعوة يجب أن تكون حاله ونيته كحاله حين يصوم ويصلي، وحين يحج ويزكي، فهو يعبد الله ويتقرب إليه، وهو يبتغي الأجر والثواب من الله وحده، ويرجو الرضا منه لا من سواه .

غير أنّ أعمال الدعوة تختلف عن سائر العبادات اختلافات تجعلها أكثر تيسيرا، لتكون أكثر حصولا وتأثيرا .

فأعمال الدعوة ليس لها مواقيت زمانية أو مكانية، وليس لها صفة تكون عليها أو هيئة خاصة لها .

وأشبه العبادات بعبادة الدعوة هي عبادة الدعاء، وقد كان رسول الله ﷺ يدعو الله على كل أحواله . وكذلك كان يدعو الناس على كل أحواله، وفي كل أحوالهم أيضا، والدعوة والدعاء من أصل واحد هو فعل « دعا » .

وقد امتدح الله تعالى المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ .

[آل عمران : ١٩١]

وقد ظل خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، حتى آخر أيامه وآخر لحظات عمره يدعو ويوصي ويعظ . كان وهو بين يقظة الحياة وغيبوبة الموت يوصي بإنفاذ

جيش أسامة ، ويوصي الناس بالصلاة وما ملكت أيمانهم ، وفي رمقه الأخير دعا زوجاته فوعظهن وذكرهن ...

وهذه سنة الأنبياء وعادتهم : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٢ : ١٣٣] .

ونبي الله يوسف عليه السلام كان يعيش في محنة السجن بعد محنة الجب ، وقد لجأ إليه رفيقان له في السجن لتأويل رؤيا كل منهما ، ولكنه قبل أن يجيبهما ويبين لهما انطلق يدعوهما إلى الله وتوحيده ، ويسفه الشرك وينقضه ﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٣٩ - ٤٠] فلم ينسه شيء عن دعوته ولم يشغله شيء عن رسالته ، لقد كان داعيا ولم يكن شاكيا باكيا .

إن الدعوة وإن كانت عبادة تحتاج إلى نية ، فإنها تحتاج إلى أن تصبح عادة وسجية ، يؤديها صاحبها ويقبل عليها في حله وترحاله ، في أهل وعياله ، في ليله ونهاره في ليله ونهاره ، في صحته ومرضه ، وعند موته يؤديها ﴿ لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ [يونس : ١٢] .

وكثير من أهل الدعوة فهموا وألفوا أن الدعوة لا تكون إلا بالجلوس والدروس ، وقد سبق أن بينت في حلقات ماضية فضل الجلوس للدروس ، ولكن الاقتصار على ذلك يصيب الدعوة وأهلها بالشلل النصفي . ومعلوم أن المصاب بالشلل النصفي لا بد وأن يصيبه الضعف والوهن حتى في نصفه السليم .

والقرآن الكريم يقرن الدعوة والدعاة بالقيام لا بالجلوس ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ ﴿ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ [الكهف : ١٤] .

فنحن في حاجة إلى الدعوة القائمة الدائمة لا إلى الدعوة الجامدة النائمة . نحن بحاجة إلى الدعوة في كل مكان ، حتى في الحكومة والبرلمان .

*****

حب المال والجاه ذئبان ضاريان

روى الأئمة أحمد والنسائي والترمذي وابن حبان ، عن كعب بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « **ما ذئبان جائعان** – أو ضاريان – **أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف** » .

والناس يعرفون ما يمكن أن يفعله الذئبان الضاريان الجائعان ، إذا سلطا على قطيع غنم ، من تقتيل وتمزيق وافتراس وإفساد .

فمثل ذلك ، بل أشد ، يفعله ذئبان من نوع آخر إذا تسلطا وخلي بينهما وبين الإنسان ودينه ، إنهما يفترسان الدين ويعيثان فيه فسادا بأكثر وبأسوأ مما يفعله الذئبان الجائعان في غنم لا حارس لها ولا مدافع عنها .

إنهما الحرص على الغنى والمال ، والحرص على الشرف والجاه .

فإذا أطلق الإنسان لنفسه العنان في طلب المال والجاه ، وتمادى في الحرص عليهما والتعلق بهما ، كان ذلك إيذانا بخراب قلبه وفساد دينه . ولو كان من خيرة العلماء العاملين وصفوة الدعاة والمجاهدين ، ومن الأتقياء الورعين .

فالدين يعلمهم القناعة ، وطلب المال يعلمهم الشراهة .

والدين يعلمه الحرص على المباحات الطيبات ، والحرص على المال يجره إلى الشبهات ، ومنها إلى المحرمات .

والدين يريد المال وسيلة لا غاية ، وحب المال والتمادي فيه يجعل منه غاية ، وقد يصبح معبودا .

والدين يدعو إلى بذل الدنيا في سبيل الدين ، والحرص على المال يدعو ويجر إلى بذل الدين لأجل الدنيا .

والدين يدعو إلى الرحمة والإيثار ، وحب المال يعلم القسوة والاستئثار .

وكذلك ، فالدين يدعو إلى التواضع وخفض الجناح ، وحب الجاه يدعو إلى طلب العلو والرفعة .

والدين يعلم الخوف من المناصب والإشفاق منها ، وطلب الجاه يعلم السعي إليها والاستمساك بها .

والدين يعلمنا اتهام النفس ومخالفة هواها ، وحب الشرف يجر إلى اتهام الغير والرضا عن النفس وركوب هواها .

والدين يعلمنا التعلق بثواب الله وما يجلبه من نعيم مقيم ، وحب الجاه يعلم التعلق بثناء الناس وما يجلبه من تعظيم وتقديم .

وصدق رسول الله ﷺ ، فإن الحرص على المال والشرف ذئبان مفترسان ، أكثر فتكا وأشد خطرا من ذئاب الغنم .

*****

يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان

هذا العنوان وتتمته هو قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ ﴾ .

[الأعراف : ٢٧]

وقبله نقرأ قوله ﷻ : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف :٢٦] .

ثم بعد ذلك ببضع آيات قال سبحانه : ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

فهذه ثلاثة مواضيع متتابعة في صورة واحدة ، يتكرر فيها النداء الرباني بصيغة ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ مع أن هذا النداء لم يرد في القرآن كله إلا خمس مرات ، ثلاثة منها هي هذه .

وهذه النداءات الثلاثة كلها تناولت مسألة اللباس وستر العورات ، وكلها جاءت في سياق قصة آدم عليه السلام مع إبليس وجهوده الإغوائية لآدم ولبني آدم .

ومن مجمل الآيات الكريمة نستفيد :

١ – أن الله تعالى ينبه عباده إلى أن اللباس نعمة منه ، أنزلها إلى عباده تكريما وتأديبا لهم ، بل إن التكريم والتشريف قد شمل هذه النعمة نفسها حين وصفها الله تعالى بأنها منزلة ، قال العلامة ابن عاشور : (ولذلك سمى تيسير اللباس لهم وإلهامهم اياه وإنزالا ، لقصد تشريف هذا المظهر ، وهو أول مظاهر الحضارة) (التحرير والتنوير ٨ / ٣٧) .

٢- قرن الله تعالى بين إنزال اللباس الذي يستر سوأة الجسد، وإنزال التقوى التي تستر عيوب النفس . فالتجرد من التقوى يفضح أهواء النفوس ونوازعها الشريرة، كما أن التجرد من اللباس يكشف عن صورة إنسان منحط مردود أسفل سافلين . ثم وصف سبحانه ما أنزله لعباده من ستر للأجسام وتقوى للنفوس، بقوله : ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف : ٢٦] فاللباس والستر والحياة آية من آيات الله .

٣- نزع اللباس وكشف العورات، إنما هو في الأصل عمل شيطاني، فالشيطان هو الذي فتن أبوينا ونزع عنهما لباسهما ليكشف عن سوءاتهما . لذلك جاء القرآن الكريم يحذر ذرية آدم من يفعل الشيطان ما فعل بأبويهم .

٤- ولمزيد من تشريف اللباس والستر، أمر الله تعالى بني آدم بأخذ زينتهم، خاصة عند عبادة الله وعند التوجه إلى بيوت الله، فصار اللباس مقترنا بالعبادة والتعبد مثلما اقترن بالحضارة والتحضر .

وإذا كان الأمر كذلك، فإن العري وكشف العورات إنما هو نزوع شيطاني وانحطاط وسفالة .

ولقد كان من مظاهر الجاهلية والسفالة التي نهى عنها الإسلام وغيرها، ما كان يفعله العرب قبل الإسلام من الطواف بالبيت الحرام عراة، وكذلك ما وصفه القرآن الكريم بأنه (تبرج الجاهلية) وهي النزعات التي بدأت تعود وتسود، جامعة علينا العري الهمجي والعري الإفرنجي، مما يحتم علينا مرة أخرى أن نقول لعموم الناس : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ﴾ [الأعراف : ٢٧]، وإن العري والتبرج وكشف السوءات والعورات مرضاة للشيطان مسخطة للرحمن ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

الحج والعمرة ... دورة تربوية تدريبية نادرة

الحج والعمرة عبادتان اثنتان، تختلفان في الاسم كما تختلفان في الحكم ويمكن أداء حج دون عمرة أو عمرة دون حج . ولكن – رغم هذا – فإن بينهما من التلازم والتشابه والتداخل ما يسمح باعتبارهما شيئا واحدا وعبادة واحدة، وخاصة حين النظر والبحث في مقاصدهما .

أما التلازم فحسبنا منه أن العمرة لم تذكر في القرآن الكريم إلا مقترنة بالحج قال تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٩٦] ثم قال : ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٩٦] وفي موضع آخر قال سبحانه : ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ ﴾ .

[البقرة : ١٥٨]

وأما النبي ﷺ فقد عبر عن العلاقة الاندماجية بين الحج والعمرة بقوله : « **دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة** »[(١)] .

وبهذا الدخول أو التداخل يصح عند كثير من العلماء الإحرام بالحج ثم تحويله إلى عمرة، وهو ما يسمى عند الفقهاء « فسخ الحج إلى العمرة » . وبهذا التداخل يمكن أيضا أداء المناسك المشتركة بين الحج والعمرة بعمل واحد لها معا، كما في الطواف والسعي في حالة القران، ومن هذا التداخل أيضا أن كل الحجاج تقريبا يؤدون عمرتهم مع حجتهم في موسم واحد . وكما هو معلوم فإن أعمال العمرة كلها توجد في الحج، ويزيد الحج بأمور ليست في العمرة . ومن هنا يطلق على العمرة « الحج الأصغر » .

إذا كان الأمر على هذا بين الحج والعمرة، وأنهما في الجوهر عبادة واحدة ذات

---

(١) الحديث رواه مسلم وأحمد وأبو داود والنسائي .

أداءين أحدهما أكبر والآخر أصغر ، أو أن إحداهما إعادة مزيدة أو إعادة مختصرة عن الأخرى ، فإن الحديث عن مقاصدهما لا يمكن أن يكون إلا واحدا . وفيما يلي بيان لأهم المقاصد الشرعية المتوخاة من مناسك الحج والعمرة ، حسبما دلت عليه نصوصهما وأحكامهما .

الحج قصد ونية وتهيؤ للرحيل :

النية الخالصة لله تعالى أساس كل عبادة وكل عمل تعبدي . فلا تصح عبادة ولا يقبل عمل إلا بهذه النية . ولكن النية والقصد في الحج أكثر أهمية وأشد لزوما من أي عبادة أخرى . حتى إن اسم « الحج » نفسه يتضمنها ، ذلك أن الحج معناه « التوجه والقصد إلى شيء » . والقصد أيضًا هو توجه الإرادة والرغبة والعزيمة . ولذلك لا يكون الحج حجا حتى يكون قصدا ونية وتوجها . والحج هو القصد إلى بيت الله والهجرة الفعلية إليه . هذا هو ظاهره ، ولكنه في عمقه وحقيقته قصد إلى الله ، وهجرة إليه مما سواه ، فشد الرحال والارتحال إنما هو في الحقيقة إلى رب البيت لا إلى ذات البيت . فلذلك وجب على الحاج أن يعتقد أنه متوجه بقلبه ونيته ، ورغبته وشوقه ، وبهمته وإرادته إلى ربه . يقول الإمام الغزالي رحمه الله : « وليتحقق أنه لا يقبل من قصد وعمله إلا الخالص . وإن من أفحش الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمه ، والمقصود غيره »[1]

والمؤمن يتوق ويشتاق إلى لقاء ربه في الدار الآخرة ، وهو طيلة حياته يعمل لكي يلقاه وهو راض عنه ، في المحشر والحساب والثواب . والحج من مقاصده التذكير بالله والوقوف بين يدي الله ، والتذكير بفراق الدنيا والرحيل إلى الدار الآخرة . فمشاهد الحج التي تبلغ ذروتها في ذلك الموقف المهيب والمشهد الرهيب بعرفات ، إنما هي تجسيد مصغر لمشاهد الحشر والوقوف بين يدي الله يوم القيامة .

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٣١٦

فعلى الحاج وهو يستعد لسفره ويتزود لرحلته ، ويفارق أهله وماله وبلده ، أن يتذكر أنه عما قريب يفارق أهله وماله وبلده إلى غير رجعة ، وأن عليه أن يتزود أكثر فأكثر لسفره الأكبر ومرحلته الأخطر . فليتعلم من رحلته إلى الحج وتزوده لها ومفارقته من يحب وما يحب ، أنه لا بد مرتحل ومفارق ، وأن لكل ارتحال زادا واستعدادا وأن زاد الآخرة هو التقوى والعمل الصالح : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

ومن أهم لوازم التقوى التي يتزود بها الذاهب إلى ربه ، أن يبرئ ذمته من المظالم وحقوق العباد . فيرد منهاما يمكن رده ، ويستسمح ممن يمكن الاستسماح منه ويستغفر الله ويتوب إليه مما لا يعلمه ولا يستطيع رده ولا التحلل منه ، حتى لا يكون في سفره مثقلا ومكبلا بالمظالم وآثامها .

الحج ذكر ودعاء :

مما يلفت الانتباه بسرعة وبقوة عند النظر في النصوص والأحكام المتعلقة بالحج والعمرة ، ذلك الإلحاح المتكرر كثيرا على ذكر الله في كافة مراحلها ومناسكها .

قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ١٩٨:٢٠٠] ثم قال: ﴿وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [البقرة : ٢٠٣] وفي سورة الحج نقرأ : ﴿ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ ﴾ [الحج : ٢٨] ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ [الحج:٣٤] ﴿ فَٱذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾

[الحج:٣٦] ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [الحج : ٣٧] .

فالأمر بذكر الله تعالى والحث عليه والتذكير به هو أمر ملازم كما نرى لكل أعمال الحج ومحطاته . ومن المعلوم أن افتتاح أعمال الحج والحجاج يكون بالتلبية وهي ذكر . وهذه التلبية تستمر وتتكرر حتى تصبح شعارا للحج والعمرة . كما أن وقوف يوم عرفة – الذي هو أعظم أيام الحج وأعظم أعماله – إنما هو يوم ذكر ودعاء . وإذا كان الحديث الشريف يقول : « **الحج عرفة** » [1] فمعناه « الحج ذكر ودعاء » .

ويتأكد هذا المقصد الأعظم من مقاصد الحج والعمرة إذ لا حظنا كذلك أن سائر أعمال الحج تكون مصحوبة بالأدعية والأذكار ، وليس الجديد الخاص بالحج هو الذكر والدعاء ، فهذا قد يتحقق في حياة المسلم كلها وفي عباداته جميعا أو في كثير منها ، ولكن الذي يمتاز به الحج هو هذه الكثافة وهذا التتابع في أيام معلومات وأيام معدودات ، وفي أماكن مهيبة ومشاهد خاشعة ، تجعل الحاج المعتمر ذاكرا لله في حالة انقطاع وتجرد وتفرغ واستغراق .

الحج أشمل العبادات وأعمقها :

لقد أكرمنا الله تعالى وشرفنا بعبادات متعددة ومتنوعة ، حتى يجد كل الناس – على اختلاف ظروفهم وأحوالهم وقدراتهم – فرصتهم ونصيبهم ومجال قوتهم منها . وأيضا حتى يجد كل مكلف أنواعا من العبادات تتسع لكل ما فيه وما لديه من جسم وعقل وروح ومال ووقت ، فالصلاة عبادة لروحه وعقله وبدنه ، والصيام عبادة أخرى لبدنه ولنفسه ، والزكاة عبادة لماله ونفسه ، والجهاد عبادة لبدنه ، أو لماله ، أو للسانه ، والذكر عبادة لقلبه وعقله ولسانه.

---

(١) الحديث رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

ولكن الحج يجمع كل هذا ويزيد عليه . فالحاج يعطي غير قليل من وقته في رحلته ومناسكه ، وهو يضحي بماله الذي ينفقه وبماله الذي يتركه أو يفوته كسبه . والحاج يجاهد ويعاني ببدنه وكافة حواسه . وهو ينهمك في حجه بقلبه وروحه ويلبي ويذكر ويدعو بقلبه ولسانه ، ويمشي بقدميه ويرمي بيديه .

وهكذا ، فالحج عبادة تستغرق من الحاج كل كيانه وكل ما يملك . ففي الحج نصب وتعب ومجاهدة ومعاناة ، وفيه صلاة ودعاء ، وفيه ذكر وفكر وحلم وصبر ، وفيه نفقات وصدقات . وقد وصفه النبي ﷺ بأنه « **جهاد لا قتال فيه** »[1] .

ومن جهة أخرى فالعبد يبلغ في عبادات الحج وأقصى درجات التعبد والعبودية ، حتى إنه ليأتي أفعالا وتصرفات لا يعقل لها معنى ولا يدرك لها مغزى ، سوى أن الله تعالى أمره بها ، فهو يمتثل أمر ربه تعبدا وعبودية . حتى لقد روى عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه خاطب الحجر الأسود بقوله : إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك .

ويقول الإمام الغزالي مقارنا عبادات الحج مع غيرها من العبادات : « .... وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية : فإن الزكاة إنفاق ، ووجه مفهوم وللعقل إليه ميل . والصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدو الله وتفرغ للعبادة بالكف عن الشواغل . والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال هي هيئة التواضع ، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل ، فأما ترددات السعي ورمي الجمار وأمثال هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ولا اهتداء للعقل إلى معانيها ، فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط (....) فإن كل ما أدرك العقل معناه

---

(١) رواه أحمد وابن ماجه .

مال الطبع إليه ميلا ما ، فيكون ذلك الميل معينا للأمر وباعثا معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد (...) وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات »[1]

لا رفث ولا فسوق ولا جدال :

إذا كان الحج عبادة مركبة من عدة عبادات ، بل هي دورة تعبدية شاملة ، فهو أيضا تربية ودورة تربوية تدريبية نادرة :

قال الله عز وجل : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وفي الحديث النبوي الشريف : « **من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه** »[2] . ومجمل ما دلت عليه الآية والحديث أن الحج يمنع فيه منعا جازما حاسما الاستجابة لشهوة الفرج وكل ما يتصل بها ويمهد لها أو يحركها ، من قول أو عمل أو إشارة . وهذا هو الرفث . كما يتأكد فيه النهي والزجر عن أي مخالفة شرعية ، سواء تعلقت بالرفث نفسه ، أو بغيره من الأقوال والأفعال . وإذا كان النهي مؤكدا والزجر مشددا كان الإثم في ذلك مضاعفا . فإن المعاصي والمخالفات يعظم إثمها بعظم حرمة زمانها ومكانها ، وبمقدار التشديد والتوكيد في النهي عنها . فعلى الحاج أن يلتزم في أثناء مدة حجه بأعلى درجات الطاعة والانضباط بحدود الله تعالى وأحكام شريعته . وإذا كان الشرع قد أمعن في كف الحجاج عن عدد من المباحات الجائزة في غير الحج كالجماع وما يتصل به والصيد واللباس والتطيب ، فكيف لا

---

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٣١٥ .

(٢) الحديث متفق عليه .

يكف الحاج نفسه عما هو محرم ومنهي عنه من أصله كالكذب والسباب وأذى المسلمين وأخذ حقوقهم أو ارتكاب محرمات وفواحش ؟

كما نهى الله تعالى في الآية عن الجدال ، والجدال في غالب الأحيان إنما هو مضيعة للوقت الذي يكون الحاج في أمس الحاجة لاستغلاله والاستفادة منه في الذكر والعبادة والمناسك ، كما أن الجدال في الغالب أيضا سببا للمشاحنات ومقدمة للخصومات والمنازعات . فالحجاج إذن يجب أن يكونوا على درجة عالية من حسن الخلق ومن الرفق واللين والتسامح . وأن يعتبروا أن الحج فرصة نادرة لترويض النفس وتدريبها على التواضع والهدوء والخشوع والبر والعفو والحلم . فكل هذه أخلاق ضرورية لكي يكون الحج مبرورا وناجحا ومقبولا . وبهذا يعود الحاج على غير الحالة التي ذهب عليها ، ويعود كيوم ولدته أمه ، يعود وقد أصبح من الكاظمين الغيظ ومن العافين عن الناس ، يعود وقد أصبح يدرأ بالحسنة السيئة ويدفع بالتي هي أحسن ، يعود وقد ألزم نفسه بكف الأذى عن الناس ، بل أصبح يتغاضى عن أذاهم ويقابله بالحلم والغفران .

أما من ذهب على من كان عليه سوء الخلق وفظاظة الطبع وكثرة الجدال والخصام والأذى ... ثم بقي هناك وعاد على ما كان عليه ، فما استفاد من حجة ، وما ضمن حجا مبرورا متقبلا .

أدب الضيف عند مضيفه :

قال الله تعالى : ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج:٣٠].

إن الحاج وهو في حرم الله وفي بيت الله يعد ضيفا من ضيوف بيت الرحمن ويكون في بيت الضيافة الربانية ، ونحن إذا كنا ضيوفا عند غيرنا من الناس ، نكون على غاية ما يمكن من الأدب والهدوء والانضباط واللياقة . فكيف بمن يكون في بيت الله وفي ضيافة الله وكيف إذا كان المضيف في غاية الإكرام والتنعيم لضيفه

ونزيل بيته ؟ وكيف إذا كان معه ضيوف من كل فج عميق ، ضيوف من كل الأقطار ومن كل الأجناس ، كلهم ضيوف الرحمن ؟ إن الإساءة في مثل هذا المقام تكون جريمة وفضيحة ، فهي إساءة إلى المضيف وبيته وحرمه ، وإلى ضيوفه ونزلائه ، وهي فضيحة تسير بذكرها الركبان ، ويتحدثون بها في مختلف الشعوب والبلدان .

فاحذر أيها الحاج أن تسيء إلى ربك ومضيفك ، وتسيء إلى قومك وبلدك ، أو تسيء إلى إخوانك ورفقائك . واعلم أنك ستسيء بذلك إلى نفسك وحجك ومقامك .

ليشهدوا منافع لهم :

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [الحج : ٢٦ – ٢٨] .

لقد ذكر الله سبحانه أن حجاج بيته الحرام يأتون ليشهدوا منافع لهم ، وهذه المنافع لم يحددها ، فبقيت مطلقة مفتوحة ، مما يدل على أن منافع الحج كثيرة متنوعة وغير محصورة . ولا شك أن العبادات والفضائل العظيمة المذكورة من قبل هي من أعظم منافع الحج ، إذا أحسن الحاج تحصيلها والمحافظة عليها . كما أن لقاء المسلمين القادمين من كل فج عميق ، هي فرصة عظيمة غنية بالعبر والمنافع .

فليتأمل الحاج في عظمة الإسلام الذي جعل ملايين الناس تقبل – كل سنة – على بيت الله حاجين معتمرين ، من غير أن يأتي بهم أحد ، ومن غير أن يضغط عليهم أحد ، يأتون طائعين راغبين مشتاقين . تهوى أفئدتهم إلى بيت الله الحرام ، وإلى زيارة نبيهم ﷺ ، وإلى لقاء إخوانهم المسلمين من مختلف أصقاع الدنيا .

وهكذا تتاح لك أيها الحاج فرصة لا مثيل لها لتلقى المسلمين من كل أرجاء المعمور ، لتستفيد منهم وتتعرف عليهم وعلى أحوالهم ، في محبة وأخوة لا يمنعها اختلاف الألوان والملامح والألسنة . وقد أصبح الحج الفرصة الوحيدة التي تتجلى فيها الوحدة الكاملة للأمة الإسلامية بكافة شعوبها وأعراقها وأقطارها . فهي فرصة لكل حاج لكي يجسد هذه الوحدة ويستمتع بها ولو لبضعة أيام أو أسابيع ، فيعمق شعوره بها ، ويوثقها بحسن التعارف والتآلف ، وبحسن التعامل والمعاملة ، ويتبادل الأخبار والآراء والمعلومات كما أن الحج فرصة علمية وثقافية . وقد كانت الرحلات والأسفار إحدى وسائل التعلم والتثقيف عند أسلافنا . فرحلة الحج من أولها إلى آخرها ينبغي أن تكون رحلة علمية ثقافية ، بذهابها ورجوعها ، وبإقامتها وتنقلاتها . فمشاهدة البلدان وأهلها ، ومجالسة العلماء والمثقفين ، وحضور الدروس والمحاضرات ، وزيارة المواقع والمآثر الإسلامية ، وعلى رأسها مواقع رسول الله ﷺ وصحابته ، التي شهدت بزوغ فجر الإسلام وسطوع نوره على الأرض ... كل ذلك علم وثقافة ، وتفقه وخبرة ، لا ينبغي للحاج أن يضيعها أو يقلل من شأنها ، لأنها من المنافع التي دعانا الحق سبحانه لأجل شهودها وتحصيلها باعتبارها من مقاصد الحج وثماره .

*****

المذهب المالكي بالمغرب بين الإهمال والاستغلال

مما لا نزاع فيه ولا شك ، أن المذهب المالكي هو أحد الأركان الكبرى التي قام عليها الكيان المغربي ، وإحدى السمات البارزة للمغرب منذ ما يزيد عن عشرة قرون ، وما فتئ علماء المغرب وملوكه وزعماؤه يشهدون ويؤكدون أن المغرب مدين في وحدته وتماسكه وانسجامه واستقراره إلى المذهب المالكي ، وأن وحدته المذهبية هذه أعطته قوة وصلابة وتميزا ثقافيا وسياسيا واجتماعيا ، قلما حظي به قطر إسلامي آخر .

لقد وحد المذهب المالكي في المغرب العلماء فيما بينهم ، ووحد العلماء والأمراء ، ووحد العامة والخاصة ، بمختلف طوائفهم وانتماءاتهم . فقد دمج بين المحدِّثين والمتكلمين وبين الأشاعرة والسلفيين ، واستوعب الصوفية بكافة طرقهم ومسالكهم . واستوعب خصوم الأشعرية والتصوف أيضا ، فهؤلاء جميعا عرفهم تاريخ المغرب ، فاختلفوا وتنافسوا وربما تصارعوا وتعاركوا ، ولكنهم جميعا كانوا مالكية ، ويسلمون للمذهب المالكي حتى صارت « الوطنية المغربية » هي « المذهب المالكي » .

ويظن بعض الناس أن قوة المذهب المالكي وهيمنته بالمغرب ، إنما تحققت بفضل ترسيمه ونصرته من بعض الدول الحاكمة التي اعتمدته مذهبا رسميا في التدريس والقضاء والإفتاء . ولا شك أن شيئا من هذا صحيح ، ولكن الصحيح الأصح هو أن للمذهب الماكي أهليته وقوته الذاتية ، وله علماؤه وفقهاؤه الذين استماتوا . ـ وأحيانا ماتوا ـ دفاعا عنه ودفاعا عن حق المغاربة في التمسك به والتوحد حوله .

إن قوة المذهب الماكي الحقيقية إنما ترجع إلى قدرته على الاجتهاد والتجدد ، من

خلال أصوله وقواعده التي تجعله أقدر المذاهب على استيعاب التطورات والمستجدات كما ترجع إلى ريادته في الأخذ بمقاصد الشريعة المستمدة من نصوصها، إذ لا مقاصد بلا نصوص كما لا نصوص بلا مقاصد.

وإذا كانت بعض الدول قد خدمت المذهب المالكي بتبنيها له ودفاعها عنه، فإنها لا شك قد استفادت منه ومن قوته ومن علمائه أكثر مما أفادته.

على أن من أعظم تجليات القوة الذاتية للمذهب المالكي والرسوخ الذاتي له بالمغرب، وبالغرب الإسلامي عامة - هو تلك الحملات الشرسة التي استهدفته وحاولت استئصاله، وأخبثها وأشدها ما قامت به الدولة العبيدية (المتشيعة) التي قامت في مصر، ثم امتد نفوذها وشرها إلى بقية أقطار شمال إفريقية، بما فيها المغرب.

وقد أصيب فقهاء المذهب الماكي على يد العبيديين وأعوانهم بشتى صنوف الضغط والقمع والترهيب؛ من سجن وقتل وتعذيب وتهديد ... فصمدوا وتحملوا، حتى ذهب العبيديون، وبقي المذهب المالكي قويا راسخا.

وفي المغرب خاصة - حاول الموحدون - وهم في أوج قوتهم وشعبيتهم - إقصاء المذهب المالكي والقضاء عليه ومحوه من المغرب، وقد قام ملوك الموحدين الأوائل بضغوط وحملات شديدة ضد المذهب المالكي وفقهائه، فهددوا وعذبوا وسجنوا وقتلوا، وزادوا فأحرقوا قناطير مقنطرة من كتب الفقه المالكي، ثم في النهاية انتصر المذهب واستسلمت الدولة الموحدية أمامه.

ومن اللحظات التاريخية الشهيرة في حرب الموحدين ضد المذهب المالكي، ما رواه المؤرخون عن الفقيه المالكي أبي بكر بن الجد، قال: « لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس (في الفقه المالكي)، فقال لي: يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا،

فأي هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك ، فقال لي – وقطع كلامي ـ : يا أبا بكر ، ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أو هذا ، وأشار إلى كتاب سنن أبي داود ، أو السيف » . (انظر كتاب : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ، العلامة المرحوم محمد المنوني) .

وإذا كان خصوم المذهب المالكي من الموحدين قد حاولوا أن يفرضوا على العلماء التخلي عن المذهب وفقه والاقتصار على ظاهر القرآن والسنة ، وإلا فالسيف « هذا ، أو هذا ، أو السيف » ، فإن للمذهب المالكي وللفقه المالكي – والفقه الإسلامي عامة – اليوم خصوم لا هم من الموحدين ، ولا هم يعترفون أصلا بالكتاب ولا بالسنة . وإذا كان الخليفة الموحدي قد خير الفقهاء بين « هذا ، أوهذا ، أو السيف » فإن الخصوم من غير الموحدين اليوم يقولون للفقهاء : « لا هذا ولا هذا وإنما هو السيف » ، سيف العلمانية ، وسيف « المواثيق المزعومة » ، والحداثة الموهومة ، وسيف الاستئساد بالضغوط والتدخلات الأجنبية . عن هؤلاء « المغاربة الأجانب » يقول العلامة الأستاذ علال الفاسي رحمه الله : « فقد أصبح هؤلاء يعتقدون في القاضي الأجنبي والقانون الأجنبي واللسان الأجنبي ، أكثر مما يعتقدون في أنفسهم وفي مقدساتهم ، زيادة على ما أصبح يربط بعضهم مع الأجانب من رباط مادي ومصلحة شخصية ، لا يبالون أن يقفوا من أجلها في صف الدفاع عن مخلفات الاستعمار » (دفاع عن الشرعية ص ٢٣) .

إن معركة الشريعة الاستعمارية ضد الشريعة الإسلامية تعود إلى بداية الاستقلال ، وإلى ما قبل الاستقلال ، وكان علال الفاسي قد عبر بمرارة شديدة عن دهشته وخيبة أمله ، حين نجح أنصار الشريعة الاستعمارية وممثلوها بالمغرب في إيقاف عملية أسلمة القوانين المغربية . التي انطلقت بعد الاستقلال . وحصْرِها في الأحوال الشخصية . قال رحمه الله : « ولم يكن يخطر ببال جلالته (يقصد محمد

الخامس رحمه الله) ولا ببالنا ، نحن أعضاء لجنة التدوين الذين شرفهم جلالته بتعيينهم لأداء هذه المهمة ، أن عملنا سيقتصر على مجرد الأحوال الشخصية . والدليل على ذلك أننا اشتغلنا في قسم « الأموال » بعد إنجازنا لـ « الأحوال » وبكن قسم التشريع بالكتابة العامة (الأمانة العامة للحكومة) الذي يشرف عليه لحد الآن فنيون فرنسيون أوقف أمر البت فيه ، وترتب على ذلك أن توقف سير التدوين في بقية أبواب الفقه الأخرى » (دفاع عن الشريعة ص ٧١) .

لكن ما لم يخطر على بال علال الفاسي وأمثاله من العلماء والمجاهدين من أجل استقلال المغرب وسيادته وإسلاميته ، هو أن تمتد مطاردة الشريعة الإسلامية وأحكامها حتى في مجال « الأحوال الشخصية » الذي تم استثناؤه وانتزاعه من براثن الشريعة الاستعمارية .

فها هم المتغربون من الجيل الثاني والثالث لا يرون أي فائدة وأي معنى لمراجعة مدونة الأحوال الشخصية سوى إخضاعها لمقتضيات الشريعة الاستعمارية والقضاء على صبغتها الإسلامية .

كل هذا جرى ويجري في المغرب المسلم ، قلعة المذهب المالكي عبر التاريخ ، وفي مؤسسات الدولة التي ظل المذهب المالكي على الدوام أحد مقومات وجودها واستقرارها ، وما زال ملوكها يعلنون اعتزازهم وتمسكهم بذلك ، وللأسف فإن بعض المسؤولين قد جعلوا من « المذهب المالكي » مجرد شعار سياسي لمواجهة « الأصوليين » ومحاصرة « الوهابيين » وقمع « المتطرفين » ، وبعضهم جعل منه مجرد سند إداري لعزل بعض الخطباء وتهميش بعض العلماء .

فإلى متى سيستمر الاستخفاف بالمقدسات وتحطيم المقومات ، ضدا على إرادة الشعب المغربي المسلم تارة ، وفي غفلة منه تارة أخرى ؟؟

باب ما جاء في دخول الانتخابات
وأن لكل امرئ ما نوى

صيف هذه السنة سيكون طويلا ثقيلا على بعض الناس ، فالذين يتوقون ويتشوفون إلى دخول البرلمان والحصول على صفة « النائب المحترم » سيعانون من حرارة مزدوجة إلى نهاية شهر شتنبر ، حرارة الصيف وحرارة الانتظار والترقب ، وخاصة إذا كانوا ممن أتموا إعداد العدة ولم يبق أمامهم إلا انصرام المدة .

وأما أصحاب الصفة الحاليون ، الذين عزموا على التجديد والتمديد ، فهم أعظم مشقة واستثقالا لهذا الصيف ، خاصة حينما يفكرون في إمكانية حصول الاحتمال السيئ ، ذلك أن الفطام صعب ، ومرارة الخروج هي أشد وطئا من مرارة عدم الدخول .

ومن المفترض أن هذه الانتخابات – كسابقتها – ستعرف دخول عدد من أهل الدعوة وأبناء الحركة الإسلامية . وهذه هي المشاركة الحقيقية الأولى في الانتخابات ، بعد المشاركة التجريبية السابقة .

هذه المشاركة بالذات تثير في الأوساط الإسلامية من التساؤلات والاعتراضات والنقاشات ما لا يثيره غيرها مما أصبح معروفا مألوفا .

هل دخل « الإخوان » أيضا إلى جلسة التنافس على المناصب والمكاسب ؟ وهل الدخول إلى الانتخابات والبرلمانات جائز أصلا ؟ وكيف يدخلون البرلمان وهو يحلل ما حرم الله ، وربما يحرم ما أحل الله ، أو يسقط ما فرضه الله ؟!

وقد وقع في يدي سابقا كتاب سماه صاحبه « القول المفيد في أن دخول المجلس

النيابي مناف للتوحيد » وهو لمؤلف « مجهول » ، لكن الظاهر أنه من الصالحين الغافلين الذين تجدهم يسألون سؤال نفي وإنكار : هل عندكم دليل على مشروعية الانتخابات ؟ وعلى جواز الدخول في البرلمانات ؟ وهل وقع عند السلف شيء من هذا القبيل ... ؟؟

لأجل هذا ، ولأجل هؤلاء وضعت عنوان هذه الحلقة بالصيغة المذكورة أعلاه .

قال الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله في كتاب الإيمان من صحيحه : « باب ما جاء أن الأعمال بالنية والحسبة ولكل امرئ ما نوى » ثم قال : « حدثنا محمد بن مَسلمة قال : أخبرنا مالك عن يحيى بن سعيد عن محمد بن إبراهيم عن علقمة بن وقاص ، عن عمر أن رسول الله ﷺ قال « **الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه** » .

وبمقتضى الحديث نقول : دخول البرلمان – أو غيره – يكون بحسب النية والقصد ؛ فمن كان دخوله لله ورسوله ، لإعلاء كلمة الله ، لإحقاق الحق ومدافعة الباطل ، لجلب مصلحة للناس ، أو درء مفسدة عنهم .. ، فدخوله في حكم الله وشرعه يكون بحسب ما قصده وما عمله ،ولمثله يقال : تقدم مشكوا مأجورا منصورا .

ومن كان دخوله لدنيا يصيبها أو حظوة ينالها ، أو وجاهة يتمتع بها ، أو حصانة يستقوي بها ، أو مكاسب أخرى لنفسه يجلبها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه ، سواء وصل إليه أو لم يصل .

وإذا كان هذا قصده ومبتغاه وإليه هجرته ومسعاه ، لكنه أخفاه على الناس ، وأظهر لهم غير ذلك فهو كاذب غاش لهم . ومن غش فليس منا .

وأما من اختلطت عليه الأمور فيقال له : « **دع ما يريبك إلى ما لا يريبك** » .

وروى الإمام مالك في كتاب الجهاد من موطئه ،عن زيد بن أسلم ، عن أبي صالح السمان ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « **الخيل لرجل أجر ، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر** » .

- فأما الذي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله فأطال لها في مرج أو روضة ، فما أصابت في طِيَلها (أي رباطها) ذلك من المرج أو الروضة كانت له حسنات . ولو أنها قطعت طيلها ذلك فاستنت **شرفا أو شرفين** (أي ركضت شوطا أو شوطين) **كانت آثارها وأرواثها حسنات له . ولو أنها مرت بنهر ، فشربت منه ، ولم يريد أن يسقي به ، كان ذلك له حسنات . فهي له أجر** .

- **ورجل ربطها تغنيا وتعففا** (أي ليستغني ويتعفف عن الناس وعن الحرام) ، **ولم ينس حق الله في رقابها ولا ظهورها ، فهي لذلك ستر** .

- **ورجل ربطها فخرا ورياء ، ونواء لأهل الإسلام ، فهي على ذلك** (أي على صاحبها) **وزر** .

وسئل رسول الله ﷺ عن الحُمُر (الحمير) ، فقال : « لم ينزل علي فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] .

فعلى كل واحد أن يتدبر هذا الحديث الشريف الصحيح ، وينظر الحالات المذكورة فيه ، ثم يقيس نفسه ويقيس لنفسه ، وينظر أين هو من ذلك ، فمن أراد الأجر فليخلص في قصده ونيته ، وليصدق في قوله وفعله .

ومن أراد الستر والعفاف فليسلك طريقه وليلزم حدوده ، ولا يدع ما ليس له ، فإن « **المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبيْ زور** » كما جاء في الحديث الصحيح ، فالذي

يدعي ما ليس له ويتظاهر بما ليس فيه ، إنما هو صانع غش وزور .

وقد ختم الحديث الشريف (حديث الخيل) ، بإحالة السائل على آية كريمة وصفها بأنها « جامعة فاذة» تنبيها على أهميته الخاصة والبالغة ، فهي فريدة في بابها ، وهي جامعة لكل ما يمكن أن يعرض للإنسان من أشياء وتصرفات . فهي نص في كل ما لا نص فيه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] .

فأينما حللت وارتحلت ، وحيثما دخلت أو خرجت ، وكلما أقدمت أو أحجمت .... ففي ذلك خير أو شر . فما أتيت من خير وبر ونفع فهو لك ، وأنت فيه محسن مصيب محمود مأجور . وما أتيت من شر وسوء وضرر وإذاية فعليك وزره وإثمه .

*****

دعم القضية
الفلسطينية وضرورة المداومة

منذ ما يقرب من قرن احتلت بريطانيا فلسطين ، واستمر احتلالها عدة عقود ، ومنذ ما يزيد على نصف قرن قامت الدولة الغازية بتسليم أرض فلسطين للعصابات اليهودية القادمة من شتى أنحاء العالم . وعلى مدى هذه السنين الطوال العجاف يعاني الشعب الفلسطيني من مثل ما نراه هذه الأيام : تقتيل وتشريد ، وضرب وجرح ، وتكسير وتعذيب ، وقصف وحرق ، وتخريب وتهديم ، وحصار وتجويع ، وإرهاب وتخويف ....

وليس من الممكن أن تنتهي هذه المحن قبل زوال ما يسمى بدولة إسرائيل التي قد تستمر لعشرات السنين الأخرى .

والدرس الذي نأخذه من هذه القضية أنها معركة طويلة ، قد تستغرق قرنا أو يزيد ، فهي بحاجة إلى نفس جهادي طويل الأمد كثير المدد . والشعب الفلسطيني – ذلك الصغير الفقير ، المستضعف المستهدف – أبان عن وعي كامل بطبيعة هذه القضية ، وعن إدراك تام لطولها ولمتطلباتها ، ولذلك فقد أصبح شعبا متجددا في جهاده وصموده وطول صبره مصابرته .

إلا أن الشعوب العربية والإسلامية – التي هي سنده ومدده – لا تبدو في هذا المستوى ، فهي لا تكاد تتجاوز التجاوب الانفعالي والدعم الرمزي والتحرك الموسمي .

ولذلك فمن بين الدروس المستفادة من الشعب الفلسطيني ومن قضيته : ضرورة الاستمرار والمداومة في الدعم المادي والمعنوي والبشري .

وقد علمنا الإسلام ، ورسول الإسلام ﷺ أن أنفع الأعمال وأكثرها مردودية وتأثيرا هو ما اتسم بالمداومة والانتظام . فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سئل : أي العمل أحب إلى الله ؟ قال أدومه وإن قل . وقالت رضي الله عنها : « كان عمله ديمة » ولذلك كانت « إذا عملت العمل لزمته » وقالت « كان آل محمد ﷺ إذا عملوا عملا أثبتوه » أي واظبوا عليه . (والأحاديث من صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين) .

*****

رسالة مستعجلة من الشعب الفلسطيني إلى الشعب المغربي (*) : قل هاتوا أموالكم إن كنتم صادقين

لا شك أن الجميع قد توصلوا بالرسالة المشار إليها .....

الشعب الفلسطيني في رسالته العاجلة يشكر جميع المغاربة ، الأشقاء الأوفياء ، يشكرهم على مشاعرهم وعواطفهم ، يشكرهم على تحركاتهم وتجمعاتهم ، يشكرهم على شعاراتهم وهتافاتهم يشكرهم على مسيرتهم التى سارت ، وعلى مسيراتهم التي حوصرت أو قمعت .

لكنه يقول لكم في رسالته المستعجلة : إن حالته وأوضاعه ترونها في كل يوم وفي كل ساعة : حصار وتفقير ، وهدم وحرق وتدمير ، وقتل وتكسير ..

فهو يحتاج إلى الماء والغذاء والدواء والكساء ، والترميم وإعادة البناء . يحتاج إلى وسائل العلاج لمرضاه وجرحاه ومعطوبيه ، وإلى وسائل التعليم وأدواته لأطفاله المجاهدين ، يحتاج إلى رعاية أيتامه وأسر شهدائه ...

يريد ألا يضطر أحد منه إلى الاشتغال عند عدوه وجلاده ، وقاتل أبنائه وإخوانه ،

(*) كانت هذه الكلمات المقتضبة موضوع تحقيق أمنى مع كاتبها ، قامت به الفرقة الجنائية الوطنية بأمر من وزير العدل الاشتراكي محمد بوزوبع ، حيث اعتبر مضمونها دعوة لاكتتاب عمومي بدون ترخيص والغريب أن هذا الاستنطاق لم يقع إلا في صيف ٢٠٠٣ ، أى على إثر أحداث ١٦ من مآى ٢٠٠٣ بالدار البيضاء . وقد جرى التحقيق نفسه مع الدكتور عبد الكريم الخطيب ، لأن الحساب البنكي الذي كانت تودع فيه التبرعات للشعب الفلسطيني كان باسمه .

يريد ألا يضطر إلى بيع أرضه أو مسكنه إلى الأعداء الأغنياء ، فيسهم في تهويد المدن والقرى والمزارع والضيعات .

يريد ألا يضطر أبناؤه إلى مزيد من الهجرة وإخلاء الوطن وتسليمه واستسلامه ...

يريد أن تكون له ولأبنائه معاهد وجامعات ، ووسائل قوية للإعلام ومؤسسات ، حتى لا يبقى شعبا جاهلا ومجهولا ، أو عاجزا ومتجاوزا .

أفهمتم الرسالة ؟؟ أم مازلتم بحاجة إلى الإطالة ؟

إنه يريد منكم المال ، ثم المال ، ثم المال .

تتساءلون أيها الأعزاء : أين ندفع المال ؟ وإلى من ندفع المال ؟

والجواب : ادفعوا إلى كل ثقة أمين ، ويجب عليه أن يدفع إلى كل ثقة أمين ،حتى تصل الأمانة إلى أهلها ومستحقيها .

أليس العالم قد صار قرية صغيرة .

*****

وتزودوا من أرض فلسطين

في فلسطين زاد أي زاد ، زاد للإيمان والقلب ، وزاد للعقل والفكر ، فيها زاد لكل المتزودين وعبرة لكافة المعتبرين .

في الجزيرة العربية وفي الجزائر والمغرب يكتشفون آبار النفط والغاز ومناجم الفحم والفوسفات ، ويجدون منها زادا يكفي لجيل أو جيلين من حاجات البلد بيعا واستهلاكا ، أما في فلسطين فنكتشف ويكتشف العالم آبار الإيمان والإسلام ، ومناجم العزة ، والكرامة ، ومعادن الرجولة والبطولة .

من فلسطين تتدفق الأنابيب الساخنة المليئة بالآمال والبشائر ، وتتعالى أصوات المستضعفين من الشيوخ والنساء والولدان ، لتقول لنا ولكل من يعنيهم الأمر :

إذ الشعب يوما أراد الحياة

فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجلي

ولا بد للقيد أن ينكسر

فهذا هو زاد فلسطين الذي يتزود منه اليوم جميع المسلمين ، وهو يكفي تتزود منه أجيال بعد أجيال . فتزودوا منه يرحمكم الله ، وتشبعوا وتضلعوا ، وتفكروا وتدبروا ...

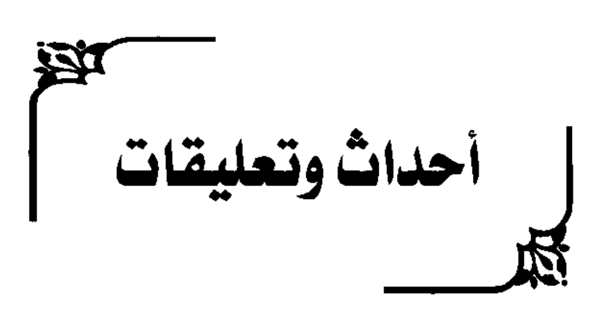
هذا الشعب الصغير الفقير ، يواجه منذ سبعين سنة الحركة الصهيونية والمنظمات اليهودية ، بكل أموالها وممتلكاتها في العالم ، وبكل تغلغلها ونفوذها وتحكمها في العديد من دول العالم ومنظماته ، ويواجه منذ أكثر من نصف قرن دولة الاغتصاب والإرهاب ، بجيشها الجهنمي وجبروتها الفرعوني ، ويواجه حرب إبادة وتهجير وتجويع وتعذيب ، تستعمل فيها وتجرب فيها كل الأسلحة الحديثة الجديدة ، ويواجه هذا الكيان المدعوم إلى حد الاحتضان والتبني من طرف دول هي أعتى وأقوى وأغنى الدول في العالم .

يواجه هذا الشعب الصغير الفقير حصارا وضغطا وقمعا وخنقا تمارسه عليه دول شقيقة لصيقة . وقد تعرض للتقتيل مرارا في لبنان ، وتعرض للتقتيل في الأردن ، ويخضع للإقامة الجبرية المحروسة في سوريا ، ويتعرض للقهر والتطويع والتطبيع قسرا على يد سلطته « الوطنية ».

هذا الشعب الصغير الفقير تقدم له الشعوب العربية والإسلامية الكثير من العطف والحنان ومن الإهمال والخذلان ، والقليل من العون والإحسان .

ومع ذلك نجد هذا الشعب الصغير الفقير يقدم للأمة الإسلامية قاطبة زادا متدفقا في الصبر والمصابرة ، في التضحية والفداء ، وفي العطاء بعد العطاء ، حتى نحسبه لكثرة البلاء والعطاء أنه قد دخل مرحلة الفناء ، فإذا به يضخ إلينا - حينا بعد حين - زاده وعطاءه ألا فتزودوا من شعب فلسطين .

*****



أحداث وتعليقات

من أجل حداثة حقيقة (١)
فصل الدين عن الدولة
أم فصل العلمانية عن الدولة

من أهم الأسس التي قامت عليها الحداثة الأوربية ، (فصل الدين عن الدولة) أو إخراج الدين من سلطة الدولة ، والمراد بالدين في مفهوم الأوربيين ، والمسيحيين عموما ، هو الكنيسة وسلطتها وممارستها . ولما كانت الكنيسة المسيحية قد أصبحت على مدى قرون وقرون رمزا للخرافة والطقوس الخرافية ، وسلطة ضد العلم والعقل ، وحليفا للظلم والظالمين ، وشريكا للإقطاع والإقطاعيين ، وسندا للاستبداد والمستبدين ، وللحكام المتأهلين ، وأداة للقمع والقهر وخصما عنيدا للحرية والتحرر السياسي والاجتماعي والفكري ...

ولما كانت الكنيسة قد أصبحت تمثل هذا كله وتمارسه وتبرره باسم الدين ، وباسم المسيح ، كان لابد لكل تقدم وتحرر ونهضة من المرور عبر « فصل الدين عن الدولة » فجاءت العلمانية ، أي لا دينية الدولة .

وبالرغم من كون الإسلام على النقيض تماما من المسيحية الكنسية وما آلت إليه ، وعلى الرغم من خصائصه التجديدية والتحريرية التي تجعل الاجتهاد والتجديد عملية دورية ذاتية كلما وقع فيه وفي أهله جمود أو تحريف أو ركود ، حتى إن تاريخ الإسلام والمسلمين قديما وحديثا لا يكاد يعرف حركة إصلاحية أو تجديدية أو تحررية إلا وكان وراءها الإسلام وعلماؤه وزعماؤه .

وبالرغم من هذا كله ، فقد أبت الدول الاستعمارية التي احتلت معظم البلدان الإسلامية ، إلا أن تزرع في هذه البلدان فكرة فصل الدين عن الدولة ، زرعتها

عمليا بقوة احتلالها وتحكمها ، وزرعتها ثقافيا وفكريا من خلال بعض أبناء البلد الذين تتلمذوا بمدارسها ولغتها وثقافتها ، وجهلوا دينهم وثقافتهم ودينهم وتاريخهم وحضارتهم ، ومنذ ذلك الحين والتيار العلماني ينمو ويتولى مقاليد الحكم تحت الرعاية المباشرة والحماية المستمرة للدول الغربية ، وهكذا تم تمكين عدد من الزعامات والأحزاب العلمانية من الحكم - كليا أو جزئيا - في معظم الدول العربية والإسلامية ...

حصيلة التجربة العلمانية في الحكم والسلطة في العالم الإسلامي لم تكن سيئة وفاشلة فحسب ، ولكنها كانت كارثة ومدمرة ، كما هو معروف ومشاهد ومعايش ، بل لا أبالغ إذا قلت : إن الزعامات والأحزاب العلمانية التي حكمت في العالم الإسلامي ، قد قامت بأدوار شبيهة بما قامت به الكنيسة المسيحية في أوربا في عصورها المظلمة الحالكة .

ولكم أن تستعرضوا تجاربهم حيثما حكموا أو شاركوا في الحكم في العالم الإسلامي .. ولكم أن تستحضروا بعض صفحات من واقع الجزائر وتونس وليبيا ومصر وسوريا والعراق ونحوها من البلدان التي تسلط عليها العلمانيون الثوريون التقدميون الحداثيون ......

خلاصة الأمر أن هؤلاء العلمانيين أفسدوا على الناس دينهم ودنياهم ، ومحقوا حريتهم وكرامتهم ، وانتهكوا عقائدهم وأخلاقهم ، وصادروا حرياتهم وحقوقهم ، ومارسوا الإلغاء والإقصاء في حق مخالفيهم ، وارتكبوا كل أنواع التنكيل في حق منتقديهم ومعارضيهم . بل أكثر من هذا وصاروا تماما مثل الكنيسة يرون أن لا علم إلا ما يرونه علما ، ولا تقدم إلا ما يعدونه تقدما ، ولا حداثة إلا ما هم عليه ، ولا ديموقرطية إلا ما يمارسونه (عافاكم الله) ، وأن من شك أو شكك في هذا أو طعن فيه ، أو قال بخلافه ، فهو مارق من العصر وإنه لفي خسر ...

وأنا بحكم تقديري لمبادئ الحداثة وتقديري لمنجزاتها الإيجابية في أوربا والعالم الغربي عموما ، وبحكم تقديري وبصفة خاصة لما قامت عليه وقامت به من « فصل الدين عن الدولة » حينما وجدت نفسها أمام دين فاسد تستعمله كنيسة فاسدة ، بتحالف مع أنظمة مستبدة .

وبحكم أنني أعيش وأرى ما فعلته العلمانية والعلمانيون ببلاد المسلمين ، حيث لا نرى في ذلك سوى فكرة فاسدة بيد زعامات فاسدة وأحزاب مستبدة ، ولم نجن من هذه الفكرة وأصحابها لا حداثة ولا ديموقراطية ولا حرية ولا أمنا ، بل جنينا وتجرعنا كل أضداد هذه الأمور ....

لذلك أرى أن مقتضيات الحداثة الحقيقية في بلادنا وفي العالم الإسلامي كله هي « فصل العلمانية عن الدولة » وليس فصل الدين عن الدولة . والحمد لله رب العالمين .

٢٦ / ٦ / ٢٠٠٣ م

*****

من أجل حداثة حقيقية (٢) :
الحداثة والتقليد ضدان لا يجتمعان

كثير من الناس اليوم وخاصة ممن يسمون أنفسهم حداثيين لا يفهمون من الحداثة وممارستها سوى التقليد والمحاكة والتبعية للغرب ، ويعتقدون أنهم كلما أدمنوا تقليد الغربيين وتمظهروا بمظاهرهم ، فهم حداثيون أكثر فأكثر !

المشكل لا يقف عند هذا الحد ، بل الأدهى والأمر هو أن أصحابنا الحداثيين من عرب ومغاربة فاشلون حتى في التقليد والاستنساخ ، فما من شيء قلدوا فيه الأوربيين إلا وجاء تقليدهم رديئا ومتخلفا وفاشلا .

علماؤنا الأقدمون حينما فتحوا باب الاجتهاد ظلوا دائما يتحدثون عن « شروط الاجتهاد » ، ولكن الحداثيين اليوم بحاجة ماسة إلى من يضع لهم « شروط التقليد » ، أما الاجتهاد فهم أبرياء منه وبعيدون عنه . الحداثيون عندنا مدمنون للتقليد والاستنساخ ، ومع ذلك لا يتقنونه ولا يحسنونه .

- قلدوا الأوربيون في الفكر والفلسفة ، فصاروا وجوديين ، وأمسوا داروينيين ، وباتوا ماركسيين ، ثم أصبحوا ليبراليين ، وأضحوا كونيين ... يدورون مع الغرب حيث دار ، ويسيرون وراءه حيث سار ، مع تخلف عنه في كل شيء حتى في الزمان . فحينما تستهلك الأفكار في الغرب وحينما يظهر إفلاسها ويبدأ تعديلها أو تجاوزها ، يكون أصحابنا قد شرعوا في ترجمتها وحفظ مفرداتها والانطلاق في ترويجها على أبنائها ومثقفيها ، مع أنهم لا يكادون يروجون إلا ما فيه منافاة ومعاداة لديننا وحضارتنا ، أي أنهم يروجون بضائع مسمومة وبعد أجل استهلاكها ، فهي فاسدة مرتين .

- وقلدوا الأوربيون في القوانين والتشريعات ، ولم يقوموا لا بغربلتها ولا بتهذيبها ولا بملاءمتها ، بل على العكس من ذلك حاربوا بلا هوادة كل ما يقف في طريقها ، بما في ذلك التشريعات الإسلامية وثروتنا الثقافية والفقهية وحصانتنا الخلقية ، وسمعناهم منذ سنوات قريبة يقولون ويؤكدون أن حكومتهم ملتزمة بملاءمة التشريعات المغربية (أي ما بقي منها) مع المواثيق الدولية (أي المغربية) ، ولم يفكروا طبعا في ملاءمة التشريعات المغربية والمواثيق الدولية من شريعتنا ، ولا مع ثقافتنا ولا سيادتنا الوطنية .

- وقلدوهم في استباحة الخمر والربا والتحلل الخلقي وما يتبع ذلك من « حريات » وانتهاك للحرمات ، لأن كل ذلك من مظاهر «النموذج المجتمعي » الذي فرضه التقليد والتبعية .

- وحتى حينما ظهرت في المغرب ظاهرة « عبدة الشيطان » فقد دفعتهم غريزة التقليد إلى الدفاع عنها من باب حرية الأديان وإباحية الأبدان .

- وقلدوهم في قضايا المرأة التي يزعمون الدفاع عنها ، ولم يقفوا عند ما هو معقول أو له وجه من المعقولية ، بل ذهبوا مع موجة الامتهان والابتذال فشجعوا التعري بلا حدود ولا قيود ، ودافعوا عنه ، وحاربوا الستر والعفة والحشمة ، وانخرطوا في تنظيم أسواق ملكات الجمال وفي الإشهار الجسدي ، ووضعوا الفتيات في المزاد العلني بمعايير وأسعار محددة حسب الطول والعرض والوزن والسن واللون والشعر ونحوها من تضاريس الجسد ....

ـ ولما بدأ الأوربيون يحاربون خمار النساء والتلميذات العفيفات هب أصحابنا لأداء فريضة التقليد والتبعية ولكن رداءتهم هذه المرة تمثلت في المبالغة والشراسة في محاربة الحجاب والمتحجبات كل حسب قدرته وكل حسب سلطته ، ومن لم يحارب

باليد حارب باللسان وذلك أضعف الإيمان .

ــ ولما أخذ الأوربيون بمبدأ « الكوطة النسائية » ، استيقظ الحداثيون عندنا وقالوا : لا حل لنسائنا إلا بالكوطة . ولكن الرداءة في التقليد جعلت كوطتهم لا تأتي إلا بالقرينات والقريبات والمقربات ...

ـ وحتى حينما تطاول بعض الحداثيين بالمغرب على المؤسسة الملكية وبدؤوا يدندنون حول تطويرها وتحديثها ، لم يرجعوا إلى تاريخها الطويل ولا إلى ماضيها العريق ، ولا ذهبوا يستلهمون رصيدها الغني وتجاربها المتنوعة ، ولا ابتكروا من ذاتهم فكرة جديدة ، وإنما قصارى ما أوصلهم إليه تقليدهم أن قالوا : نريد ملكية على النمط الأوروبي : مثل ملكية إسبانيا وبريطانيا .

قديما مر بعض المسلمين الجدد من الأعراب ، ببعض المشركين الذين كانت لهم شجرة ضخمة يعظمونها ويجتمعون عندها في موسم سنوي ، وكانت هذه الشجرة تسمى عنهم « ذات أنواط » ، فقال هؤلاء المسلمون الجدد لرسول الله : « اجعل لنا ذات أنواط كما بهم ذات أنواط » فقال عليه الصلاة والسلام : « **الله أكبر ، قلتم والذي نفسي بيده ، كما قال قوم موسى** : ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَـٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾ [الأعراف : ١٣٨] ، **لتركبن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى إنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه** » . فمتى يخرج حداثيونا من جحورهم ليدركوا أن الحداثة الحقيقية إبداع واجتهاد من ذاتنا ومقوماتنا ، وأن الحداثة الحقيقية لن تتحقق إلا من خلال الأصالة المتجددة والأصالة المبدعة ، وأن الحداثة الحقيقية والتقليد الأعمى ضدان لا يجتمعان .

٣/ ٧/ ٢٠٠٣ م

*****

من أجل حداثة حقيقية (٣) :
محنة الحداثيين مع الديمقراطية
ومحنة الديمقراطية مع الحداثيين

حداثيون أو حداثويون ، دعاة الحداثة أو أدعياؤها ، ديمقراطيون أو ديمقراطويون .... لا يهم ما داموا معروفين جدا ، خاصة هذه الأيام ، وإذا ظهر المعنى والمعنيون ، فلا مشاحة في الإسم

هؤلاء الحداثيون عادة ما يصرون على التسمي والاتصاف بصفة أخرى ، يريدونها من خصائصهم ومكتسباتهم ، فيقولون : حداثيون ديمقراطيون ، مثلما يقول غيرهم : مؤمنون مسلمون .

وقد وضحت من قبل كيف أن هؤلاء الحداثيين ليس لهم من الحداثة إلا بعض أضدادها ونقائضها ، وبعض عيوبها ونقائصها ، وأن الحداثة الحقيقية تقتضي – أول ما تقتضي – التخلص من الأنماط الفكرية والسلوكية المتخلفة لهؤلاء الحداثيين ، فالحداثة انبعاث وتجدد من الذات ، وهؤلاء لم تبق لهم ذات بل أصبحوا متخصصين في هدم الذات وأصالة الذات والحداثة تحرر وإبداع ، وهؤلاء مقلدون أتباع ...

أما الديمقراطية التي يتعلقون بها وينتسبون إليها فهي معهم في محنة ، وهم أيضا في محنة معها .

الديمقراطية كما يعرف الجميع هي أن تكون الكلمة للشعب ولإرادة الشعب .

الديمقراطية هي الطريقة المثلى للتعبير عن إرادة الشعب وتصريف إرادة الشعب ، وهنا تبدأ محنة الحداثيين .

فالشعب مع الإسلام والإسلاميين ، ومع الأتقياء والصالحين ، ومع

الديمقراطيين الصادقين ، والحداثيون ليسوا من هذا في عير ولا نفير ، هم في واد والشعب في واد ، فإذا قبلوا الديمقراطية وساروا في طريقها وقبلوا نتائجها ونتائج نتائجها ، فسيجدون أنفسهم على هامش الزمان ، ويجدون براجمهم في خبر كان .....

الديمقراطية حركة شعبية ، وهم لا يستطيعون أن يكونوا شعبيين ، ولا يستطيعون التخلص من نخبويتهم وطائفيتهم ، ولا يستطيعون النزول من أبراجهم ومغادرة مكاتبهم ، وحين يرون غيرهم يتمتعون بالشعبية ويندمجون مع الشعب ويتكلمون لغة الشعب ، يقولون : هؤلاء يمارسون الخطاب الشعبوي ويجب منع الخطاب الشعبوي وأصحابه . « ومن بعد عنه العنقود اعتبره حامضا » ، لذلك تجدهم دائما – وخاصة في المناسبات الانتخابية – ساخطين على الشعب ، لكنه سخط متبادل على كل حال .

والديمقراطية تتسع للجميع ، وتتيح الفرصة للجميع ، وتساوي في ذلك بين الجميع ، لكن أصحابنا ديمقراطيون انتقائيون ، ديمقراطيون إقصائيون ، ديمقراطيون احتكاريون ، ديمقراطيون استئصاليون ، ما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

ولكي يتفلسفوا في ذلك قالوا : لا ديمقراطية لغير الديمقراطيين ، والديمقراطيون هم هم ، ولا ديمقراطية إلا للحداثيين ولا حداثيون إلا هم .

ومن أدخل الأخلاق في السياسة فليس ديمقراطيا ولا حداثيا ، ومن رفع راية الدين والقرآن والحلال والحرام فيستحيل أن يكون ديمقراطيا ، ولو كان معه الشعب كله ....

ولسد الأبواب وقطع الطريق على منافسيهم الذين يهددون ديمقراطيتهم الزائفة والمغشوشة ، فقد أصبح الحداثيون يتعلقون بأي شيء : دعوا إلى حل « الأحزاب

الأصولية » ودعوا إلى منع « العدالة والتنمية » . ودعوا إلى منع قيام أحزاب على أسس دينية ، ودعوا إلى إلغاء قيام الدولة على أسس دينية (فصل الدين عن الدولة) ، ودعوا إلى حل حركة التوحيد والإصلاح ، وإلى شن حرب استئصالية تأتي على الأخضر واليابس ، ودعوا إلى التضييق على المساجد و التنكيل بخطبائهم .

ودعوا إلى حذف التعليم الديني والدراسات الإسلامية ودار الحديث الحسنية ، ونادوا بالتطهير ، « تطهير » المقررات الدراسية من المواد والمضامين الإسلامية ، بما فيها بعض المصطلحات القرآنية .

ولكنهم مع هذا كله خافوا وتوجسوا ، فنادى بعضهم علانية – نعم علانية – بضرورة تزوير الانتخابات ، فنزاهة الانتخابات لم تعد أولوية ، ولم تعد مناسبة !!

ألا هكذا تكون الديمقراطية وهكذا تكون نهاية الديمقراطية .

هذه بعض ملامح المحنة المتبادلة بين الديمقراطية وأدعيائها الحداثيين ، لكن لهذه المحنة وجه آخر يعيشونه ويعرفونه جيدا ، وهو التزوير والتلاعب بالديمقراطية داخل هيئاتهم الحزبية والنقابية وحتى الثقافية والمهنية .

فمؤتمراتهم وتجمعاتهم دائما تطاردها لعنة التزوير والتلاعب والغش ، وما أكثر ما خرجوا منها منشقين ومنقسمين متلاعنين متصارعين ، يصدرون البيانات والبيانات المضادة ، والاتهامات والاتهامات المضادّة ، حتى اضطر أصحاب « الوفاء للديمقراطية » و « الباقون على الطريق » والداعون إلى « المؤتمر الوطني » ، اضطر هؤلاء الفضلاء وأمثالهم إلى التمييز والاستنكار .

وهناك عدد من الهيئات التابعة لأدعياء الحداثة والديمقراطية مكبلة ومجمدة أو مهربة خوفا من الديمقراطية وتوابعها ....

فهل هناك إفساد للديمقراطية أقبح من هذا ؟

وهل هناك محنة للديمقراطية أسوأ من هذا ؟

أليست الديمقراطية عندنا بأمس الحاجة إلى الإنقاذ المستعجل من أعدائها / أدعيائها ؟

١٠ / ٧ / ٢٠٠٣ م

*****

معاداة السامية في صيغتها الجديدة

تعرض رئيس الوزراء الماليزي الدكتور مهاتير محمد لحملة شرسة انخرط فيها عدد من السياسيين والإعلاميين « الإسرائيليين » والغربيين ، بسبب انتقاده للسياسة العدوانية « الإسرائيلية » ضد الشعب الفلسطيني وضد دول عربية أخرى ، كما أنه كان قد انتقد بعض المواقف الغربية اليهودية من الإسلام والمسلمين . وكانت التهمة الجاهزة التي وجهت للسياسي الماليزي وانبنت عليها الحملة عليه هي التهمة الشهيرة « معاداة السامية » . كما تعرض المفكر السويسري المسلم الدكتور طارق رمضان لحملة عدائية مماثلة ، انخرط فيها قبل أيام مجموعة من الكتاب والمفكرين الفرنسيين ، حيث أشهروا في وجه التهمة القديمة المتجددة : « معاداة السامية » وسبب التهمة هو انتقاده لهم ولأفكارهم المتسمة بضيق الأفق وبالنزعة الطائفية والعنصرية .

تهمة « معاداة السامية » أصبحت في الغرب - وفي فرنسا بصفة خاصة – سلاحا فتاكا ضد حرية التفكير وحرية التعبير ، وحتى حرية البحث العلمي والتحقيق التاريخي . وهي – بهذا – تعتبر وصمة عار في جبين الحداثة والحرية والعقلانية والديمقراطية ، فكم من العلماء المفكرين والباحثين منعت أبحاثهم وحوصرت أفكارهم ، ومنهم من حوكموا (مثل الفيلسوف الفرنسي المسلم روجي كارودي) ومنهم من فصلوا من مناصبهم الجامعية ... ولائحة الضحايا طويلة .

وخلال السنة الماضية حاول بعض « المثقفين » المغاربة استصدار قانون بالمغرب لما سموه أيضا بمعاداة السامية ، وكأنهم لم يصبروا على وجود شيء في فرنسا (حتى ولو كان سبة) دون أن يكون لهم مثله بالمغرب ، فهم كما قال ﷺ : « ... **حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه** » .

نحن نعرف أن اليهود قد أصبحوا في العالم أصحاب مكانة ونفوذ وامتيازات لا تضاهي ، ليس في الدول الغربية فحسب بل في كافة الدول العربية والإسلامية . وأحيانا يكون لهم من الامتيازات ومن الحماية ومن الأمن ما ليس لغيرهم من فئات المجتمع وطوائفه ، بمن فيهم من يمثلون الأغلبية الساحقة .

كان المفروض – مع هذه الوضعية الممتازة والمريحة – أن تختفي من العالم فكرة « معادة السامية » التي جاءت ردا على النازية والفاشية ونحوها من التيارات العنصرية الأوربية التي حل محلها تمجيد اليهود وتمتيعهم بكافة الامتيازات والتعويضات المادية والمعنوية . ولكن الحركة الصهيونية تأبى إلا أن تنفخ في الرماد لتبقي اليهود وغيرهم تحت ضغطها وفي خدمة مخططاتها . وليبقى الناس جميعا تحت سيف « معاداة السامية » .

والحقيقة أن « معاداة السامية » الحقيقة اليوم هي تلك المسلطة على العرب والمسلمين وعلى كل ذوي « الملامح » العربية والمشرقية والشرق أوسطية ... فقد أصبحت هذه « الملامح » كافة لمعاداة الأشخاص ومضايقتهم أو اعتقالهم أو استفزازهم أو إبعادهم .

معاداة السامية اليوم هي التي تتجلى في طرد التلميذات والطالبات والمدرسات والموظفات وحتى البرلمانيات ، لمجرد أنهن يغطين شعر رؤوسهن .

معاداة السامية اليوم هي معاداة « الديانة السامية » التي هي الإسلام بكل ما يرمز إليه ، من نبي وقرآن وشريعة . أليست هناك موجة عارمة من الكراهية والمعاداة للديانة السامية وكل ما ومن ينتسب إليها ؟

إذا كان قد بقي في عالم اليوم مكان لقيم التسامح ومناهضة الاضطهاد والعنصرية ، ولتجريم « معاداة السامية » فيجب أن توجه لفائدة الإسلام والمسلمين ، الذين

أصبحوا ضحية للعداء والاتهام والملاحقة في تدينهم ولباسهم ونياتهم وأفكارهم وسائر حقوقهم . إن معاداة السامية لم يعد لها اليوم وجود إلا في حق الإسلام والمسلمين . إنها معاداة « الأمة السامية » ومعاداة الديانة السامية .

٢٤ / ١٠ / ٢٠٠٣ م

*****

الحقوق المنسية للمرأة المغربية

صليت الجمعة الأخيرة (٩ أبريل ٢٠٠٤) بمسجد قريتي [1] التي ذهبت إليها في زيارة عائلية . وكان (الفقيه) الفاضل خطيب الجمعة يردد على مسامعنا من حين لآخر : أيها الإخوة والأخوات ، أو : معشر المؤمنين والمؤمنات ....

لقد ذكرتني عبارات الخطيب هذه بهم قديم طالما أرقني وآلمني . وهو أن مسجدنا هذا – وآلاف المساجد مثله – ليس فيه أخوات وليس فيه مؤمنات . وبعبارة أدق : آلاف المساجد – كمسجد قريتنا – لا تؤمه النساء ، لا تدخله النساء ، لا مكان فيه للنساء . ولكني مع ذلك استحسنت ذلك الخطيب ونداءه للأخوت وللمؤمنات لأمرين ، أو لفائدتين :

١ – لأنه يحافظ على الأصل ، وهو أن يكون في المسجد رجال ونساء ، وأن الخطيب يأتي لمخاطبة الرجال والنساء ، فهذا هو الأصل الذي وجده الخطيب مكتوبا في الخطبة فقرأه كما « أنزل » فحافظ على الأصل ، ولو في الخطبة .

٢ – لأنه نبهني وذكرني بهذا المشكل ، وعساه هو أو غيره ينبه آخرين غيري ويذكرهم ، وها أنذا – بفضل تنبيهه وتذكيره – أكتب هذه الكلمة وأنقل عبرها التنبيه والتذكير إلى كل من يهمهم الأمر .

إن كافة المساجد في قرانا وباديتنا لا تؤمها النساء ولا مكان فيها للنساء . وكذلك شأن عدد من مساجد المدن . ومعنى هذا أن غالبية عظمى من نسائنا – الأخوات المؤمنات – محرومات من حقهن في بيوت الله ، ولا مكان لهن فيها ، وهذا يؤدي تلقائيا إلى حرمانهن :

---

(١) دوار أولاد سلطان ، ثلاثاء ريسانة بإقليم العرائش .

١- من صلاة الجماعة بالمسجد .

٢- من صلاة الجمعة وخطبتها

٣- من دروس العلم والوعظ

٤- من التعليم القرآني والديني للبنات في المساجد .

لو كان هذا الحرمان لبضعة آلاف من النساء والبنات لكان كبيرا وخطيرا ، فكيف وهو يصيب ملايين النساء والفتيات ، ويشمل بصفة خاصة كافة قرانا ، مع أن شعار « التنمية القروية » لا ينبغي أن يقف عند تنمية البقر والشمندر .....

لقد كتب وقيل عن حقوق المرأة – في بلدنا وحده –ما لو نشر على الأرض لغطى مسافات طويلة ... ومن أجل ذلك أعطيت لبعض النسوة مناصب ومكاسب ، ولأجل ذلك ولتنميته أحدثت وزارات وإدارات وتأسست جمعيات ومنظمات وصدرت قوانين وتشريعات ، وكل هذا وذاك لا يلتفت من قريب ولا بعيد إلى الحقوق الدينية للمرأة المغربية ، وخاصة المرأة القروية .

فإلى من نتوجه ؟ وعلى من نعرض مشكلة خلو نسبة كبيرة من مساجدنا من مكان للنساء ؟ إلى وزارة الأوقاف ونظارتها ؟ أم إلى المجالس العلمية وأعضائها ؟ أم إلى الجماعات القروية ومنتخبيها ؟ أم إلى المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان ؟ أم إلى وزارة حقوق الإنسان ؟ أم إلى الوزارة المكلفة بالتنمية القروية ؟ أو تلك المكلفة بشؤون المرأة والأسرة ؟

إن اتساع دائرة المشكل ، وامتداده على كافة مناطق البلاد ، يجعل الحل محتاجا إلى هؤلاء جميعا وإلى غيرهم ، ولكن تبقى وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – بلا شك – صاحبة المسؤولية الأولى .

١٤ / ٤ / ٢٠٠٤ م

حزب العدالة والتنمية ...
المؤتمر الذي خيب الآمال ! (*)

كثيرون أولئك الذين علقوا آمالهم على المؤتمر الأخير لحزب العدالة والتنمية ، فخيب المؤتمر والمؤتمرون آمالهم ، ولم يكن بوسع الحزب وأهله إلا أن يخيبوا تلك الآمال ويحولها إلى آلام .

لقد كان أمل الكثيرين هو أن يكون المؤتمر محطة للصراع والخصام ، يرجى لها أن تؤول إلى التفرق والانقسام ، أليست هذه سنة راتبة في مؤتمرات أحزابنا ؟ أليست سنة جارية في أحزاب الرفاق وأحزاب الوفاق ؟ ينعقد المؤتمر بحزب واحد ، ثم ينفض عن حزبين ومشروع حزب ثالث بين بين .

كان أملهم أن حزب العدالة والتنمية مؤهل أكثر من غيره للخصام والانقسام . فهو أصلا مشكل من مجموعات متغايرة ويرونها متنافرة . وهو قد تلقى ـ على مدى سنة كاملة ـ من الضربات والحملات والضغوط ما يكفي لتشتيت الرأس الواحدة ، فكيف برؤوس متعددة ، تبدو لهم متنافسة متشاكسة ؟!

كان أملهم أن يشتد التنازع والتقاطب : بين الجدد والقدامى بين المتشددين والمتفاهمين ، بين تيار الدكتور الكبير وتيار الدكتور الصغير ، بين جماعة الرباط وجماعة البيضاء ، ولم لا بين الفاسديين والسوسيين ... ؟

كانوا يرصدون ويفتشون لعلهم يجدون أي « حبة » ليجعلوا منها « قبة » ، كانوا يحاولون أن يلتقطوا أي شيء من المؤتمر ، أو على هامش المؤتمر ، يمكن أن يفسر بأنه

(*) كتب بمناسبة نجاح المؤتمر الوطني الخامس للحزب حيث انتخب الدكتور سعد الدين العثماني أمينا عاما للحزب في أجواء تاريخية .

تلاعب أو تدليس أو تزوير في الإعداد للمؤتمر ، أو في سيرة وتفاصيل مجرياته وبرنامجه ، ولو بالتشكيك في توقيت إقامة الصلوات وتقديم الوجبات .

كان كل شيء جاهزا وفي حالة استنفار من أجل إطلاق حملة التزمير والتطبيل ، والتضخيم والتهويل ... لكن خابت آمالهم وحبطت أمانيهم ، نأسف لهم ونشفق لحالهم .

بعضهم كاد أن يصدع بالحقيقة المرة ، فكتب عنوانا يقول : « مؤتمر العدالة والتنمية الانتصار الجماعي » ، لكن مرارة الحقيقة كانت لا تطاق ، فأدخل تعديلا طفيفا يخفف من ألم الغصة فصار العنوان هو « مؤتمر العدالة والتنمية : الانتحار الجماعي » .

واحد آخر نفد صبره وتحمله ، فكتب ينذر ويحذر من هذا الحزب ومن هذا التيار الذي لا يمكن – بزعمه – أن ينسجم مع النظام الملكي . ولكن المسكين سرعان ما صفعته الرسالة الجوابية الملكية [1] التي جاءت ساطعة دامغة ، قاطعة الطريق على كل مزايدة أو نفاق ، فتحية للمؤتمر الذي خيب آمالا مريضة ، وتحية للزعيم عبد الكريم الذي حقق آمالا عريضة ، وهنيئا لحزب العدالة والتنمية بخصومة اليقظين المتربصين ، فبفضل جهودهم وتربصهم سيظل الحزب أتقى وأنقى .

******

(١) رسالة ملكية بعث بعثها ملك البلاد للأمين العام للحزب الدكتور سعد الدين العثماني بمناسبة نجاح أشغال المؤتمر . كما بعث الملك رسالة أخرى للزعيم المؤسس الدكتور عبد الكريم الخطيب بمناسبة تنحيه عن منصب الأمين العام للحزب .

من البزوغ المشرقي إلى النبوغ المغربي

من حين لآخر ترتفع بعض الأصوات بالتبرم والرفض لما يأتي من المشرق ، وبانتقاد المشرق وما هو مشرقي ، مع نوع من التباكي على الخصوصيات المغربية تجاه « الغزو المشرقي » . هذا التبرم وهذا الرفض عادة ما يتركز على ما له صلة بالإسلام وما يرمز إلى الإسلام وما يحسب على الإسلام ، كبعض الأفكار وبعض التيارات وبعض العادات .

من حين لآخر ترتفع بعض الأصوات بالتبرم والرفض لما يأتي من المشرق ، وبانتقاد المشرق وما هو مشرقي ، مع نوع من التباكي على الخصوصيات المغربية تجاه « الغزو المشرقي » .

هذا التبرم وهذا الرفض عادة ما يتركز على ما له صلة بالإسلام وما يرمز إلى الإسلام وما يحسب على الإسلام ، كبعض الأفكار وبعض التيارات وبعض العادات .

فهناك من يشتكون من كون الحركات الإسلامية جاءتنا من المشرق ، أو أن التطرف بضاعة مشرقية ، أو أن الوهابية مستوردة من المشرق .. وهكذا يقال في الألبسة والأشرطة وهندسة الجوامع والصوامع .....

لست معنيا بالدفاع عن المشرق ولا عن أي شيء مشرقي . كما أنني لا أحس بأي تضايق من أي شيء مشرقي لمجرد أنه مشرقي ، فنحن أمة « لا شرقية ولا غربية » . ولكني أريد فقط تسجيل بعض الملاحظات وبعض التنبيهات على هذه الحساسية ، التي تصبح أحيانا نزعه عدائية ، تجاه المشرق وما يأتي منه .

١ – يجب ألا ننسى أن التدين المغربي ، أو ما يسميه البعض باسم « الإسلام

المغربي » ظل دائما يقوم على ثلاثة أركان : المذهب المالكي في الفقه ، المذهب الأشعري في العقيدة ، طريقة الجنيد في التصوف . وهي الأركان التي أشار إليها ابن عاشور بقوله : « في عقيدة الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك »

فهذه الأركان الثلاثة كلها منسوبة لعلماء مشارقة ليس فيهم مغربي واحد .

٢- كما يجب ألا ننسى أن الإسلام نفسه جاءنا من المشرق . بل حتى المسيحية التي تسود أوربا والقارتين الأمريكيتين ، هي كذلك مشرقية . وكذلك اليهودية . فالمشرق مهبط الرسالات ومهد الحضارات ...

٣- هؤلاء المصابون بالحساسية تجاه المشرق ، بسبب بعض الأفكار أو بعض العادات ، لا يضايقهم في شيء الغزو الكامل الذي جاءنا من الغرب ، فملأ حياتنا ببعض خيره وبكامل شره ، وفرض علينا هيمنته بكل وسائل القهر والإكراه ، بل إذا وجدوا من ينتقد هذا الغزو ويرفضه أشهروا في وجهه سيف الكونية والعالمية ، وكأن الكونية لا مصدر لها ولا معنى لها إلا الغرب وما يأتي من الغرب .

٤- هؤلاء السادة أيضا لا يضيقون بكثير من المواد المشرقية : كالأغاني الشرقية ، والرقص الشرقي ، والمسلسلات المصرية واللبنانية .... أم أن هذه المواد تشفع لها جذورها الغربية ؟

أنا لا أدعو إلى الترحيب بكل ما هو مشرقي ولا إلى مجافاة كل ما هو مشرقي ، ولكن إلى التكامل والتبادل وأدعو إلى تعزيز ما سماه العلامة عبد الله كنون « النبوغ المغربي » (*) استكمالا وتتويجا للبزوغ المشرقي ، دون أن ننسى أن المسلمين أمة واحدة .

٢٨ / ٤ / ٢٠٠٤ م

(*) إشارة إلى كتابه الشهير « النبوغ المغربي في الأدب العربي »

حول ملكة جمال صفرو ...
« الأحداث المغربية » أصابت وإن كذبت

نشرت جريدة « الأحداث المغربية » خبرا تقول في عنوانه « في موقف شاذ لم يحدث على مدى ٨٤ سنة ، مستشارو العدالة والتنمية يعترضون على فقرة ملكة الجمال بموسم حب الملوك بصفرو » . لكن سرعان ما أصدر مستشارو المجلس البلدي بمدينة صفرو – من حزب العدالة والتنمية ومن أربعة أحزاب أخرى – مع مستشار بدون انتماء – أصدروا بيانا ينفون فيه نفيا تاما ما نشرته الجريدة المذكورة .

أما أن تنشر « الأحداث المغربية » الكذب والافتراء والتلاعب بالأخبار ، فهذا شيء طبيعي ومألوف ، وخاصة حينما يتعلق الأمر بكل ما يمت إلى الإسلام وأهله بصلة . وتلك رسالتها الأساس « ولكل وجهة هو موليها ».

لكن أن يكون في ما تنشره بعض الصحة وبعض الحق ، فهذا وارد أيضا ، سواء كان ذلك بنية سيئة أو بنية خبيثة . ولذلك فأنا لا أكذب جميع ما تنشره هذه الصحيفة ، بل أكذب بعضه وأحتاط من بعضه ...

وفيما يخص الخبر المذكور ، فهو وإن كان مفترى أو محرفا كما أكد ذلك المستشارون المعنيون بالأمر ، فإن فيه جانبا من الصواب والمنطق .

فمن المعروف والمسلم أن حزب العدالة والتنمية قد عارض واستنكر مرارا هذه العادة الرديئة التي تسمى « ملكة الجمال». وللحزب في ذلك مواقف ووقفات مشهودة مشكورة ، وكل ذلك تم بمبادرات من قيادته ومن الرئيس المؤسس الدكتور عبد الكريم الخطيب حفظه الله . وموقف « العدالة والتنمية » هو موقف

عامة الشعب المغربي المسلم ، الذي لا يريد تطرفا دينيا ولا تطرفا إباحيا ، ولا تطرفا لا دينيا ، وهو موقف جميع العلماء بلا استثناء .

على أن شناعة هذه العملية المسماة « مسابقة ملكة الجمال » لا تكمن فقط في فحشها وانسلاخها من كل حياء أو عفة ، بل أيضا لما فيها من امتهان وابتذال للمرأة ومن متاجرة بجسدها وتحويلها إلى وسيلة فرجة ومتعة عمومية ، خدمة لعبيد الشهوات والثروات .

والحقيقة أن الاستنكار لا ينبغي أن يقتصر على صناع هذه العملية ، بل يجب أن يوجه إلى المنظمات النسائية وإلى كافة المتباكين على حقوق المرأة وكرامتها والذين يحاربون « كل » أشكال الميز ضد المرأة ، لسكوتهم المريب عن مثل هذه الممارسات المهينة للمرأة .

وأنا أسأل هؤلاء جميعا : لماذا هذه العملية تقتصر على النساء دون الرجال وعلى الإناث دون الذكور ؟ هل كرامة الرجال لا تتحمل هذا الذي تتحمله كرامة النساء ؟ ولماذا لا تدعون في مساواتكم إلى مسابقة « ملك جمال الرجال » ؟

وأعود إلى مدينة صفرو ، وإلى ما ذكرته جريدة «الأحداث » من أن هذه العملية تجرى منذ ٨٤ سنة أي منذ ١٩٢٠ ، لأقول لهم : متى كانت الأقدمية والاستمرارية تعطي المشروعية للأفعال ، وتجعل الشر خيرا أو الخير شرا ؟

ثم أليس هذا التاريخ هو الوقت الذي استتب فيه الأمر لقوات الاحتلال ولسلطته بالمنطقة ، فكانت هذه النبتة الخبيثة مما زرعوه وحموه ضمن حمايتهم المفروضة ؟

وأخيرا أنا أرى أن منطقة صفرو ، ومنطقة الأطلس عموما ، كلها جمال وكل ما

فيها جميل . فالمنطقة برمتها وبطبيعتها هي ملكة جمال المغرب . ولا حاجة لها بمثل هذه الممارسة المستنكرة . نسأل الله تعالى العفو والعفة والعافية .

٥/ ٤/ ٢٠٠٤ م

*****

دفاعا عن نواقض الوضوء

منذ أيام قرأت حوار صحفيا مع أحد السياسيين الفضلاء والمناضلين القدماء[١] وقد تحدث هذا الزعيم السياسي المغربي عن نظرته إلى الحركة الإسلامية المغربية ، ما لها وما عليها ، ودعاها إلى القيام بثورة دينية ذاتية على غرار الثورة التي قام بها البروتستانت في دينهم المسيحي ، ثم قال حفظه الله : « أما أن يبقى الإسلاميون – واللفظ له – متشبثين دائما بنواقض الوضوء فهذا تخلف » . وقد أثارني هذا التصريح لعدة أسباب :

١ – ما علاقة نواقض الوضوء بالتخلف ؟

٢ – كثير من الناس يختارون نواقض الوضوء للتعبير عن التهكم والتحقير ، للدعاة أو للفقهاء ، أو للحركة الإسلامية عموما ، كما هنا .

٣ – ما معنى التشبث (دائما) بنواقض الوضوء الذي على الإسلاميين أن يخرجوا منه ؟

والظاهر من السياق أن الإسلاميين المتهمين بالتشبث بنواقض الوضوء هم بالدرجة الأولى أولئك المنخرطون في العمل السياسي أو لهم حضور ومزاحمة في الساحة السياسية وفي الشؤون العامة ، وهؤلاء يعرف الجميع قضاياهم ومشاغلهم ، ويعرف الناس أقوالهم وتصريحاتهم ، ومطالبهم وبرامجهم ... وحسب علمي ، فليس في ذلك كله حرف واحد عن الوضوء ونواقض الوضوء . فما معنى دعوة هؤلاء لكي لا يبقوا « متشبثين دائما بنواقض الوضوء » ؟ أم هي دعوة للتخلي عن

---

(١) المقصود هو السيد محمد سعيد آيت إيدر المقاوم والسياسي اليساري المعروف الذي أجرت معه أسبوعية الصحيفة مقابلة صحافية .

الوضوء وتوابعه ونواقضه ؟؟

ولأجل رفع الحيف والتحقير عن نواقض الوضوء ، فإني أود أن أوضح شيئا من معناها ومغزاها ، بما يتناسب مع مستوى السياسيين واهتماماتهم الرفيعة .

نواقض الوضوء . أيها السادة . تتلخص في ثلاثة هي :

١- أن يخرج من الإنسان المتوضئ شيء قذر وملوث .

٢- أن يصيبه إغماء أو غيبوبة .

٣- أن ينام نوما عميقا ، وهو (النوم الثقيل) كما تعلمنا في المدرسة .

ومعنى هذا ومغزاه هو أن الوضوء جاء ليطهر الناس مما يخرج منهم من قاذورات وملوثات ، وليزيل عن الغائبين غيبوبتهم وما فقدوه من وعيهم ، وليزيل عن النائمين غفلتهم ودوخة نومهم ، ويعيد إليهم يقظتهم وانتباههم .

ولأن نواقض الوضوء هذه تقع وتتكرر في حياة كل الناس ، فقد كان لا بد لهم من الوضوء المتكرر المستمر لحفظ نقاوتهم ونباهتهم .

ولا أخفي القارئ الكريم أنني حينما قرأت التصريح المذكور ، قلت في نفسي ، إن هذا الكلام نفسه هو أيضا من نواقض الوضوء . لأن مثله لا يصدر إلا عن صاحب غيبوبة أو نوم ثقيل . فما أحوج صاحبه إلى تجديد معرفته بنواقض الوضوء ، وما أحوجه إلى تجديد وضوئه ، لتجديد يقظته وانتباهه إلى الواقع من حوله .

أما الحركة الإسلامية ، فأنا لا أخشى عليها من التشبث بالوضوء وبنواقض الوضوء ، فهي منهمكة وغارقة فى ما سوى ذلك . ولو كانت منهمكة في مسائل الوضوء وما جاورها لكانت عند الجميع ومُرَحبا بها عند الجميع ، ولذلك فأنا إنما أخشى عليها من التفريط في الوضوء ومن الغفلة عن نواقض الوضوء .

١٢/٥/٢٠٠٦ م

المقاصد الحقيقية للمصطلحات الأمريكية

كثير من الناس عبر العالم أصبحوا – وبشكل متزايد – يتهمون المسؤولين الأمريكيين بالكذب على العالم . فقد كذبو ا على مجلس الأمن الدولي ، وكذبوا في الجمعية العامة للأمم المتحدة ، وكذبوا في الوكالة الدولية للطاقة الذرية ، وكذبوا في خطبهم وبياناتهم واتهاماتهم ووعودهم ومواعيدهم ..

وقد كنت أيضا أعتقد أن الأمريكيين كذابون ، إلى أن بدأت أكشف شيئا حقيقة الأمر ، وأنه ليس هناك أي كذب أو اختلاق ، وإنما هناك سوء تفاهم وسوء فهم .

لقد ساعدني تخصصي في المقاصد على أن أعرف مقاصد الخطاب الأمريكي ، ومقاصد بعض المصطلحات الأمريكية ، وما دام الأمريكيون يريدون تغيير الأوضاع وقلبها في كثير من بقاع العالم وفي كثير من شؤون العالم ، فقد عمدوا أولا إلى تغير المفاهيم وقلبها ، فاقلب الكلمات تجد الجواب الصحيح والمعنى المقصود . وإليك بعض الأمثلة :

- حينما يعلنون أنهم يشنون الحرب على العراق ويحتلونه لإزالة ما فيه من أسلحة الدمار الشامل ، فهم لا يكذبون ، وإنما يقصدون إغراق العراق في أسلحة الدمار الشامل ، وتحويله إلى دمار شامل ، وصدقوا ، فلا تكذبوهم ، لكن افهموهم .

- وإذا حدثوكم عن (إعادة تعمير العراق) ، فلا تكذبوهم . فلقد عمروه فعلا ، لكن بمئات الآلاف من الجنود والجواسيس والأعوان والمرتزقة ، جاؤوا بهم من القارات الخمس ، جاؤوا بهم من أجل (تحرير العراق) و (تعمير العراق) بمعنى (تدمير العراق) ، وإذا ظهر المقصود على الأرض فلا مشاحة في الاصطلاح . والعبرة بالأفعال لا بالأقوال كما يقولون لنا دائما .

- وإذا قالوا : إنهم يواجهون مقاتلين أجانب ويبحثون عن المقاتلين الأجانب في العراق ، فهم صادقون في ما يقصدون ، فلا تكذبوهم إذا لم يقدموا لنا ولا أجنبيا واحدا ، لا حيا ولا ميتا ، فهم يقصدون بالأجانب سكان العراق الذين لم ينخرطوا بعد في (العراق الأمريكي الجديد) ، (العراق الحر الديمقراطي) . فالعراقيون القدماء الذين لم يندمجوا في التجنيس الأمريكي والتجنيد الأمريكي مثلما فعل (البشمركة) والبعثيون التائبون هم بكل تأكيد قد أصبحوا أجانب في العراق الجديد ، أما إذا كانوا يقاومون أو يؤيدون المقاومة ـ مثل السيد مقتدى الصدر ـ فهم أجانب ومطلبون للعدالة ، وبما أن الأجنبي (أبو مصعب الزرقاوي) وأصحابه ، لم يعثر لهم على أثر ولا خبر ، فلا بد أن الأجانب هم أهالي الفلوجة وبغداد والرمادي والنجف وكربلاء والموصل وسائر من يؤيدهم من العراقيين القدامى .

- وإذا حدثوكم عن (تسليم السيادة) بعد تشكيل الحكومة العراقية الجديدة ، فهم صادقون كالعادة ، لأنهم حينما احتلوا العراق لم تكن هناك أي جهة عراقية أو غير عراقية ، قد وقعت لهم على الإذن باحتلال العراق وامتلاك العراق ، وبما أنهم ناس يتمسكون بالقانون وبالشرعية ، فسينشئون لهذا الغرض حكومة عراقية قادرة على « تسليم السيادة » والتوقيع عليها ، هذا كل ما في الأمر فلا داعي للتشكيك في النوايا والوعود ، ولا في موعد الثلاثين من حزيران (يونيو) .

- وإذا سمعتموهم يتحدثون عن مشروعهم الطموح والكبير ، الذي يسميه بعض الناس (مشروع الشرق الأوسط الكبير) فلا تعولوا في فهمه على المترجمين والشراح والمعلقين ، وإنما المعنى الأصلي المقصود ، هو (مشروع الشرق الأوسخ الحقير) ، فهذا هوا المشروع الحقيقي الذي يسعى إلى تحقيقه الأمريكيون الليكوديون التلموديون ، وهو عندهم مشروع العمر ، بل مشروع العصر .

١٩ / ٥/ ٢٠٠٤ م

مؤتمر (الحاخامات) .... مؤتمر (خاب ومات) (*)

منذ أن دخل المغرب في زمان ما بعد من ١٦ ماي ، هبت أطراف كثيرة تريد نصيبها من الغنيمة ومكاسبها ... ومنذ ما يقرب من سنة بدأ التحضير لمؤتمر فريد من نوعه أطلق عليه مخترعوه « المجلس العالمي للأئمة والحاخامات من أجل السلام » وتقرر عقده بجامعة الأخوين بمدينة إفران المغربية ، على مدى الأيام الثلاثة الأولى من شهر يونيو المقبل (سنة ٢٠٠٤) ، المنظمون لهذا المؤتمر ذكروا أنه سيحضره مائة من الحاخامات اليهود والأئمة المسلمين ، وأنه يرمي إلى دعم وتحقيق السلام . ونشروا في العالم لائحة بأسماء الحاخامات والأئمة الذين قالوا : إنهم سيحضرون هذا المؤتمر .

الذي حصل هو أن معظم « الأئمة » الذين أعلنت أسماؤهم ووجهت لهم الدعوة رفضوها ، بل بعضهم استنكروها واستنكروا إخراج أسمائهم دون علمهم ولا إذنهم ، وهكذا – ومع اقتراب الموعد – وجد المنظمون أنه لم يبق عندهم إلا الحاخامات وأفراد قلائل من « عرب إسرائيل » ، وحتى لا يتحول المؤتمر إلى مجرد مؤتمر للحاخامات اليهود وبضعة حاخامات عرب ، تقرر إلغاء المؤتمر .

ورغم أن مؤتمر الحاخامات قد «خاب ومات » ، فلا بد من أخذ الدروس والعبرة ، عسى أن يتم في المستقبل تنظيم هذا المؤتمر بكيفية صحيحة ناجحة .

السبب الأول في فشل هذا المؤتمر هو أن لائحته يملؤها ويتصدرها حاخامات

(*) حاول المنظمون إعادة الكرة من الجديد ، لكنهم لم يفلحوا واضطروا إلى نقل المؤتمر إلى بلجيكا ، وكان الناطق الرسمي باسم المؤتمر والشجرة التي تخفي الغابة ألان ميشيل قد صرح للصحافة بأن صحيفة « التجديد » هي السبب في إفشال تنظيم المؤتمر .

*****

يظلون يعطون لجيشهم « الإسرائيلي » الفتاوى بضرورة القتل والإبادة للفلسطينيين ، ويريدون من علماء الإسلام وأئمة المسلمين فتاوى وتصريحات وبيانات ومواثيق تدعو إلى « وقف العنف والإرهاب » وإلغاء المقاومة وترديد أناشيد السلام والتسليم والتطبيع والتطويع .

والسبب الثاني هو أنهم يطالبوننا بمحاربة الكراهية والحقد ونشر المحبة والوئام ، بينما هم وجنرالاتهم وجنودهم يحتلون ، ويغتصبون ، ويقتلون ، ويدمرون .... يزرعون كل أسباب الحقد والكراهية ، ثم يطلبون من ضحاياهم المحبة والوئام والتقدير والاحترام .

نقول لهم ما تقوله الأغنية المغربية : « المحبة ما تكون بالسيف » .

وما دمنا جميعا نؤمن بالله تعالى ، فيجب أن تذكر جيدا ما نص عليه سبحانه في كتبه المنزلة علينا وعليهم من أنه « لا يحب الظالمين » وأنه « لا يحب المعتدين » . ولذلك فنحن – بكل بساطة – لا نستطيع أن نحب الظالمين المعتدين .

وإذا أردنا لهذا المؤتمر أن يتم وينجح ، فيجب أن يكون مؤتمرا من أجل « العدل أولا » .

يجب على علماء الأديان – ومنهم المسلمون واليهود – أن يجتمعوا ويتعاونوا من أجل إزالة الظلم وإقامة العدل ، وأن يتحدوا جميعا لمواجهة الظالم وفضحه وكبحه .

وحينئذ تأتي المحبة ويأتي السلام ، حينئذ نعقد مؤتمر السلام .

بعبارة أخرى ، حينما يتمكن الشعب الفلسطيني من استعادة حقوقه ، وحينما يرتفع عنه الاحتلال والظلم والعدوان ، حينئذ تعالوا لنعقد المؤتمرات وتنظم الحفلات من أجل التعايش والتفاهم والوئام .

لا تضيعوا أوقاتكم وجهودكم وأموالكم في طريق لا يوصل – إن أقرب طريق

– إن لم يكن الطريق الوحيد – إلى السلام والتسامح والتعايش والتعاون ومحو الحقد والكراهية ، وهو إزالة الظلم والعدوان .

بقي أن أقول شيئا أخيرا ، وهو أن اليهود الذين لا دخل لهم في الظلم والعدوان ، ليس بيننا وبينهم إلا البر والقسط والإحسان ، وخصوصا أولئك الذين تجمعنا بهم أخوة الوطن وتعايش الآباء والأجداد ، ولذلك فنحن في المغرب سعداء بيهودنا الأوفياء لوطنهم ووطنيتهم ، فالمشكلة مع الذين خانوا الأوطان وانخرطوا في العدوان .

٢٦ / ٥ / ٢٠٠٤ م

*****

العناية بالمرأة على الطريقة التونسية

تناقلت بعض وسائل الإعلام خبر المذكرة التي أصدرتها وزارة الشؤون الدينية في تونس ، وزكتها مذكرة أخرى لوزارة الداخلية التونسية ، حيث طالبت الوزارتان خطباء الجمعة بتخصيص خطبتهم ليوم ٢١ مايو المنصرم (١ – عام ٢٠٠٤) للحديث عما حققه النظام التونسي للمرأة والأسرة ، وذلك بمناسبة اليوم العالمي للأسرة .

ما كان جديدا ومثيرا في هذه المذكرة هو مطالبة الخطباء بتخصيص الجزء الثاني من خطبة الجمعة لحث النساء على الصلاة في بيوتهن ، وبيان أنهن لسن مطالبات بالخروج إلى المسجد لصلاة الجمعة وغيرها من الصلوات ، وأن صلاة المرأة في بيتها خير لها ...

وعهدنا بالنظام التونسي – منذ عشرات السنين – أنه يدعو النساء إلى الخروج ثم الخروج ، ثم الخروج . فكيف به اليوم يدعوهن إلى عدم الخروج إلى المساجد ؟ إن هذه المفارقة معناها أن الخروج عن الدين مطلوب ، والخروج إلى الدين مكروه غير مطلوب .

وعهدنا بالنظام التونسي أنه يدعي لنفسه القيادة والريادة في مجال المساواة بين الرجل والمرأة . وها هو اليوم يلجأ إلى التفريق والتمييز ، فيحث النساء – دون الرجال ـ على الصلاة في بيوتهن ، ويفتي بأن ذلك أفضل لهن ، فهل هذا نكوص عن شعار المساواة التامة بين الرجال والنساء ، أم أن هذه المساواة ستتحقق بشكل آخر أكثر تقدمية وحداثة ، وهو دعوة الرجال أيضا إلى لزوم بيوتهم والصلاة فيها ، لأنها

أسلم لهم ، وبهذا تتحقق المساواة بين الجنسين .

وعهدنا كذلك أن النظام التونسي يفتخر بريادته في علمنة الدولة وفصل الدين عن الدولة ، والذي نعرفه من الدول العلمانية المقتدى بها أنها لا تتدخل في الدين ولا تفتي في شؤون الصلاة وغيرها من الشؤون الدينية ، بل تترك ذلك لأهله . ولكننا اليوم نجد نظاما علمانيا متطرفا في علمانيته ، ومع ذلك يصدر الفتاوى والتوجيهات الدينية !؟

إن هذه الفتوى تذكرنا بفتوى قديمة لمؤسس النظام التونسي ، الراحل الحبيب بورقيبة ، حيث أصدر فتواه الشهيرة الداعية إلى الإفطار في رمضان لزيادة الإنتاج . لقد أصبح الإفتاء الديني اليوم على نوعين : إفتاء في الدين ، وإفتاء ضد الدين .

أما موضوع الفتوى الجديدة ، فالذي نعرفه من ديننا هو تشجيع النساء على ارتياد المساجد ، وقد كانت الصحابيات يشهدن مع رسول الله ﷺ جميع الصلوات في المسجد ، بما فيها صلوات الليل كالعشاء والفجر . ويحضرن الخطب والدروس والمواعظ ، وقد نهى عليه السلام الرجال عن منع النساء من إتيان المساجد والمشاركة فيما يتم فيها من عبادات « كالصلوات ، والجمعة ، والاعتكاف »، ومن تعلم وتفقه ، ومن أعمال اجتماعية ، والأحاديث في هذا الباب كثيرة معروفة ، فإذا كانت هذه المساواة قد تحققت في ذلك الزمن برغم كل ظروفه وأعرافه فكيف بزمن المساواة ، وزمن الإفراط في المساواة ؟ وكيف بمن جعلوا من حكاية المساواة دينهم وشعارهم ومفخرتهم ؟ وما سر هذه الفتوى الغريبة وهذا التوجه المعكوس ؟

يرى العارفون – والقول قولهم – أن تردد النساء إلى المساجد يسبب للنظام عدة إفرازات وإحراجات :

– فهو يرفع درجة التدين والثقافة الدينية في صفوف النساء ، وينعكس على

الأبناء ، مما يتنافى مع سياسة تجفيف المنابع ...

- وهو يكسر حاجز الخوف ويقوي ظاهرة الحجاب في الشارع التونسي بعد سنين عجاف من الضغط والقمع والمنع ، من أجل محو الحجاب من الشارع ومن المؤسسات فهذا التردد الجماعي البارز للنساء على المساجد ، وخاصة في صلاة الجمعة ، يهدد « مكتسبات » السنن الماضية بالفشل والبوار . ولله في خلقه شؤون .

٢/٦/٢٠٠٤ م

*****

التعليمات الملكية بين التفعيل والتعطيل (*)

الشخصية الغربية ، والأسرة المغربية والدولة المغربية والحضارة المغربية ، كل ذلك قام ويقوم على الركنين الشامخين : كتاب الله وسنة رسوله ، المغاربة حين يتزوجون يكتبون : « على كتاب الله وسنة رسوله » ، وحين يتعاهدون في بيوتهم ومعاملاتهم يقولون « على كتاب الله وسنة رسوله » وحين يبايعون ملوكهم وسلاطينهم يفعلون ذلك « على كتاب الله وسنة رسوله » ، وحين يتلقى ملوكهم وسلاطينهم البيعة ويتحملون المسؤولية ، فإنهم يلتزمون بذلك « على كتاب الله وسنة رسوله » .

وأقرب نموذج بارز في هذا المضمار ، هو المبايعة التلقائية التي تمت بين الشعب المغربي وملكه أمير المؤمنين محمد السادس حفظه الله وسدد على الكتاب والسنة خطاه .

ومن التداعيات التلقائية على هذا الطريق السالك المسلوك ، تلك المبادرات الملكية المتتالية ، الرامية إلى حفظ الملة ودعم التمسك بالكتاب والسنة .

ومنذ عدة أسابيع وأنا أتأمل وأعيد التأمل في الخطاب الملكي ليوم ٣٠ من إبريل ٢٠٠٤ ، وأفكر في أبعاده ومتطلباته ومقتضى تعليماته ، وقد رأينا – والحمد لله – عدة خطوات وتدابير تطبيقية انطلقت من ذلك اليوم أو في الأيام والأسابيع الموالية .

غير أن الأيام الأخيرة حملت إلينا – من عدة جهات ومدن مغربية – أخبار مشوشة ومقلقة ، مفادها قيام عدد من رجال السلطة بإغلاق – أو محاولة إغلاق – عدد من مراكز تحفيظ القرآن الكريم .

(*) كتب بعد الخطاب الملكي ليوم ٣٠ من إبريل حول تدبير الحقل الديني .

وقد فزعت إلى الخطاب الملكي المذكور ، أعيد قراءته وتأمل مقتضياته ، وأنظر هل يمكن أن يشتم منه شيء في هذا الاتجاه ، ولو على سبيل المبالغة أو التأويل المغرض ، فلم أجد إلا عكس ذلك تماما . قال حفظه الله : « حرصنا على تأهيل المدارس العتيقة وصيانة تحفيظ القرآن الكريم ، وتحصينها من كل استغلال أو انحراف يمس بالهوية المغربية ، مع توفير مسالك وبرامج للتكوين ، تدمج طلبتها في المنظومة التربوية الوطنية » ....

فأي تأهيل للمدارس العتيقة إذا مضت سياسة الإغلاق ؟ وأي صيانة لحفظ القرآن الكريم إذا تم تسريح طلبته وشيوخه ؟ وأي تحصين لها إذا تم حذفها ؟ وهل هذا هو توفير مسالك وبرامج للتكوين لحفظة القرآن الكريم ؟ وهل هكذا سيدمجون في المنظومة الوطنية ؟

أم أن كثيرا من المسؤولين يفضلون العمل بقاعدة « كم من حاجة قضيناها بتركه » ؟ أو « قضينا عليها بمنعها » ؟ فكم من دار قرآن أهلناها بإغلاقها ، واسترحنا من صيانتها بحذفها ؟!

إن مقتضيات التعليمات الملكية تحتم أولا إجراء إحصاء ودراسة للمدارس العتيقة ومراكز تحفيظ القرآن الكريم ، ثم النظر في أحوالها وأوضاعها المادية والمعنوية ، التربوية والقانونية . ثم تحديد حاجياتها ومتطلبات النهوض بها . ثم وضع خطة لتحقيق مقتضيات الخطاب الملكي في : التأهيل والتحصين والتمكين وفتح مسالك الاندماج ...

ثم علينا أن نشكر المبادرات الشعبية والجهود الأهلية ، وأن نقول لأصحابها : هذه يد الدولة ممدودة لكم للمساعدة والترشيد ، وهذه توجيهات ملكنا بدعم مبادراتكم وتأهيلها وتحصينها وحمايتها من كل اختراق أو انزلاق . على هذا النحو فانحوا ونحن معكم لا ضدكم . كلنا في خدمة القرآن . ومن صان القرآن صانه . أما الإغلاق فيحسنه العاجزون .

٦/ ٩/ ٢٠٠٤م .

المغرب اللامع مغرب ما بعد الحداثة

هل انتهي المغرب من خوض تجربة الحداثة وفرغ من استكمال بناء (المجتمع الحداثي) الذي يتغني به مسؤولون وسياسيون وثقافيون ليل نهار ؟ هل تم رسميا تسجيل المغرب في لائحة الدول الحداثية والمجتمعات الحداثية والمجتمعات الحداثية ؟ وقبل أن نعرف الجواب عن هذه الأسئلة ، فرضت علينا الأحداث سؤالا آخر وهو : هل دخل المغرب اللامع – وأنا أتحدث عن المغرب اللامع وليس عن المغرب النافع – مرحلة (ما بعد الحداثة) وانخرط في تبعاتها وتداعيتها ؟

أحداث كثيرة ومؤشرات عديدة تدلنا على أن تجار الحداثة وسماسرتها قد انتقلوا فعلا إلى (ما بعد الحداثة) . لقد أدخلوا أتباعهم وضحاياهم وزباءنهم في (ما بعد الحداثة) بكل ما تعنيه من تفكيكية وعدمية وعبثية وشهوانية وانتحارية ....

- حركة الشذوذ الجنسي تختار مراكش لعقد مؤتمرها وتعد العدة للتنفيذ [1] ، لولا أن (سبعة رجال) قد تململوا في قبورهم ....

- حركة « عبدة الشيطان » يعلنون عن أنفسهم بالدار البيضاء ، حيث تم

---

(١) حاول الشواذ تنظيم مؤتمر لهم بمراكش المغربية واتخذوا التدابير والاستعدادات الأولية ، وتردد أن عمدة باريس الشاذ برتراند دولانوي (من الحزب الاشتراكي الفرنسي) سوف يحضره ، إلا أن السلطات نفت ذلك على لسان والي مراكش ، ومع ذلك عقدوه بطريقة سرية حسب مصدر مطلع على أمورهم . يذكر أن عمدة باريس زار المغرب بعد ذلك عام ٢٠٠٤ موقعا اتفاقية توأمة مع مدينة الدار البيضاء ، كما وقع كتابه « الحياة بطريقة منفعلة » في الدار البيضاء والرباط وطنجة ، ويجري الاستعدادات الضرورية حاليا لتنظيم الألعاب الأولمبية الأولى للشواذ بباريس .

اعتقالهم ثم تسريحهم مع الاعتذار والاحترام[١]...

- حركة الشذوذ الجنسي تدافع عن نفسها وعن مشروعيتها بتنظيم حفل جنوني بقلب مدينة تطوان، وبالنهار ولا بالليل[٢].

بعض المسؤولين الأمنيين الذين يؤمنون بالقانون بادروا بعد معرفة حقيقة ما يجري إلى اعتقال المعنيين والتحقيق معهم، ولكن قبل أن يجف مداد المحاضر تأتي التعليمات بالإفراج النهائي عنهم، مع الاعتذار والاحترام دائما.

- حركة الاغتصاب والاستغلال الجنسي للأطفال ماضية على قدم وساق في المدارس، في البيوت، في الحدائق والفنادق. وفي الحالات القليلة جدا التي تصل إلى القضاء، ويضطر فيها السادة القضاة إلى النظر في هذه الملفات القذرة، فإن ظروف التخفيف والتفهم والتسامح، هي ما يقتضيه عصر الحداثة و «ما بعد الحداثة».

- المخدرات وتوابعها تخترق أقسام الثانويات والإعداديات.

- مهرجانات الموسيقى والرقص وما يتخللها أصبحت طوفانا لا يبقى ولا يذر

---

(١) ألقي القبض على مجموعة من الشبان بالدار البيضاء ممن يعتنقون عبادة الشيطان وموسيقى الميتال الشيطانية الشاذة، لكن الصخب الإعلامي المصاحب وتدويل القضية وبعض التلاعبات الأمنية حولت القضية إلى مجرى حقوقي آخر، لتنتهي بعفو ملكي عن المتهمين.

(٢) ألقي القبض بتطوان على حفل الشذوذ الجنسي بين مجموعة من الشبان كانوا يعتزمون الاحتفال بزواج بعضهم من بعض، لكن ملف القضية أغلق بسرعة فائقة بعد تدخل جمعيات الشذوذ الجنسي بإسبانيا وأوروبا. يذكر أن في إسبانيا وحدها أربعة ملايين شاذ منتظمين في جمعيات تعتبر من أقوى الجمعيات الشاذة بأوربا. وقد استطاعت الحصول على إمكانية الزواج بين الشاذين وتبني الأطفال على عهد الحكومة الاشتراكية للوزير ساباتيرو عام ٢٠٠٥.

مهرجان الموسيقى الروحية بفاس ، مهرجان « طانجاز » بطنجة ، مهرجان الصويرة للموسيقى العالمية ، مهرجان « إكناوة » ، وربيع الصابيات بالصويرة أيضا ، مهرجان « موازين » بالرباط وسلا ، مهرجان الرباط الدولي ، مهرجان العيطة بآسفي ، مهرجان « اعبيدات الرمى » بخريبكة ووادي زم [١] ....وهكذا من السعيدية والحسيمة ، إلى إفران وصفرو ، إلى أكادير والعيون مرورا بالثانويات والمعاهد والكليات .... وكأن الشعب المغربي يعاني من مجاعة موسيقية موسيقى في المؤسسات ، موسيقى في الشواطئ ، موسيقى في الشوارع ، موسيقى في الحدائق . وحين يقال : « موسيقى » فهو عنوان مهذب ومختصر تنطوي تحته كل ممارسات الحداثة و « ما بعد الحداثة » : سكر وحشيش ورقص وزنى وشذوذ جنسي وفكري .

بين يدي الآن نموذج إعلان « مهذب جدا » (والفاهم يفهم) ، هذا الإعلان وزع وعلق مؤخرا على نطاق واسع في المؤسسات التعليمية والجامعية بالرباط ، يقول : « يعتزم مجلس مقاطعة أكدال الرياض تنظيم حفل موسيقي غنائي راقص .... بكل من حي الرياض (الحديقة الموازية لإدارة الجمارك ووزارة السياحة) ، وبحي أكدال (ساحة محطة وموقف السيارات أمام ثانوية « ديكارت ») ، وذلك بمشاركة طلبة الجامعات والمعاهد والثانويات ... » هكذا يتم ترقيص التلاميذ والطلبة في الشوارع والساحات العمومية في موسم الامتحانات !!! وما خفي أعظم ... والبقية تأتي .

تيار ما بعد « الحداثة » لا تكمن خطورته في السلوك العبثي الذي يهدد شبابنا وأطفالنا بالسقوط في مهاوي الرذيلة والتفسخ والانهيار ، وإنما الخطورة الحقيقية

---

(١) تنظم وزارة الثقافة وجمعيات يتم تكوينها من طرف جهات نافذة مجموعة من المهرجانات بالمغرب على طول العام يدعى للمشاركة فيها مغنيات راقصات معروفات بإباحيتهن مثل نانسي عجرم التي دعيت إلى مراكش وهيفاء التي دعيت إلى الدار البيضاء .

تكمـن في مـنظمات ومخططـات ، لهـا مكانتهـا ومـصالحها الـسياسية واقتـصادية والإيديولوجية . لذلك أصبحنا نجد اليوم جرائد ، وجمعيات ، ومؤلفين وبـاحثين ، كلهم يعملون على التسويق والتشويق ، وعلى التطويع والتطبيع . يـدافعون عـن حقوق ملكية الجسد ، وعن الحق في الاختلاف والانحـراف ، ويهـاجمون مـا يمارسه المجتمع في حق الشواذ من نبذ وإقصاء ونظرة تحقيرية [1] .

فها هي « ما بعد الحداثة » تكتمل عناصرها . ثم ماذا ؟!

١٦/٦/٢٠٠٤م

*****

(١) إشارة إلى جريدة « أوجوردوي لومارك » التي كتبت تـدافع عـن « الحق في الاختلاف » في الشذوذ الجنسي ، وكان ذاك افتتاحية لملف لها حول الموضع .

مشاكلنا بين العلاج المطلوب والعلاج المقلوب

حينما كتبت – في حلقة سابقة – عن إقدام بعض رجال السلطة المحلية على إغلاق عدد من المدارس والجمعيات القرآنية تحت عنوان « التعليمات الملكية بين التفعيل والتعطيل » ، كنت أريد أن أشير إلى منهجين متقابلين في مواجهة المشاكل وحلها ، وقد ظهر المنهجان جليين في معالجة موضوع المراكز والمدارس القرآنية : المنهج المطلوب ، وهو المنهج الذي عبر عنه الخطاب الملكي ، حيث دعا إلى تأهيل هذه المدارس والمراكز والنهوض بها وتحصينها من أي اختراق يصيبها أو اختلاق ينسب إليها ، ثم تيسير دمج تلاميذها في المنظومة التعليمية الوطنية .

والمنهج الثاني ، هو المنهج المقلوب ، وهو الذي لجأ إليه بعض رجال السلطة ، بتحريض وتأييد من جريدة « الأخباث المغربية »[1] جريدة الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف .

وهناك قضايا كثيرة تتأرجح معالجتها بين هذين المنهجين ، المنهج المطلوب والمنهج المقلوب .

– فحينما تستفحل الجرائم في المدن والأحياء والطرق – مثلا – نجد أصحاب المنهج المقلوب يتحدثون عن تقصير رجال الشرطة والدرك ، أو يتحدثون عن عدم كفايتهم ، ويدعون إلى مزيد من التوظيفات ، ومزيد من التجهيزات الفعالة ومزيد من الميزانيات .. وهذا هو الحل المقلوب ، ولسان حالهم يقول : فلترتفع الجريمة وليتضاعف عدد المجرمين ، فنحن أيضا سنضاعف قدرتنا البشرية والمالية ووسائل عملنا ، وسنقضي على الجريمة ، أو على الأقل نجعلها تحت السيطرة (التعادل) .

---

(١) جريدة الأحداث المغربية .

أما الحل المطلوب ، الحل الصحيح – فهو الذي يبحث ، لماذا تزايد المجرمون ؟ وكيف تطورت الجرائم ؟ وكيف ننقذ الآلاف من أبنائنا من الانخراط في عالم الإجرام ، وكيف نخرج من هذا العالم من دخلوا فيه ، مختارين أو مكرهين ؟ كيف نخفض الجريمة إلى الثلثين وإلى النصف وإلى الثلث ....

– حينما تعرف السجون انفجارا ديمغرافيا ، ويصل الاكتظاظ فيها حدا لا يطيقه لا السجناء ولا السجانون ، لا المعتقلون ولا الموظفون (أما الجدران فهي صابرة صامتة) ، في هذه الحالة يأتي أصحاب الحلول المقلوبة فيطالبون بمزيد من السجون ومزيد من السجانين ، ومزيد من الملايين ..

عن أوضاع السجون المغربية ، قرأت مؤخرا تقريرا جيدا أصدره المجلس الاستشاري لحقوق الإنسان ، يتسم بدرجة عالية من الموضوعية والمصداقية . وفي مسالة الاكتظاظ الفظيع الذي تشهده معظم السجون ببلادنا ، قدم المجلس عدة اقتراحات علاجية ، بعضها يدخل في إطار العلاج المطلوب مثل الدعوة إلى اعتماد عقوبات بديلة عن العقوبات الحبسية ، وتجنب الإفراط في الاعتقال الاحتياطي ، حيث وجد أن عدد المعتقلين الاحتياطيين قد بلغ سنة ٢٠٠٢ إلى ٧٧٨٣١ سجينًا ، يمثلون نسبة ٧٩,٨٧ ٪ من الوافدين على السجون خلال هذه السنة ، وكانت النتيجة أن ٢٥ ٪ من هؤلاء خرجوا إما بالبراءة ، أو عدم المتابعة ، أو العقوبة الحبسية الموقوفة التنفيذي ، أو مجرد العقوبات المالية (الغرامة) ، ومعنى هذا أن هؤلاء جميعا كان اعتقالهم خطأ ، وكان بقاؤهم في السجون ضررا عليهم وعلى أهليهم وعلى مجتمعهم وعلى الدولة ، وعلى باقي المعتقلين الذين ضيقوا عليهم في كل شيء .

– اكتظاظ آخر لا يطاق ، تعرفه المستشفيات والمستوصفات والمصحات ، يشكو منه ويعاني منه المرضى وأهلوهم ، تعاني منه الدولة ووزارة الصحة خاصة ، يشكو

منه الأطباء والمرضون ..

- حينما يتم البحث عن الحل والعلاج ، تأتي المطالبة بمزيد ، ومزيد ، ومزيد ... بما في ذلك مزيد من الرسوم المرضية ... هذا على منهج الحل المقلوب .

لكن الحل المطلوب ، قلما نجد من يفكر فيه ويخطط له ويسعى إلى تنفيذه ، الحل المطلوب هو تقليص المرضى والأمراض ، هو الوقاية وتلافي الأمراض ، لكن هذا اتجاه محظور أو مهجور ؛ لأنه سيفضي إلى الحديث عن الخمر والتدخين والمخدرات وسوء التغذية ، والإفراط في التغذية والتلوث والأدوية المرضية .

نسأل الله تعالى الهداية والسداد في الفكر والقول والعمل ، حتى لا نقع تحت طائلة قوله تعالى : ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

[الملك : ٢٢]

٢٣/ ٦/ ٢٠٠٤م

*****

عن التدخين أحكي ولا أفتي ... !

حين هممت بكتابة هذه الكلمة ضد التبغ وضد التدخين، تذكرت الحملات التحريفية والتحريضية المسلطة على ما أكتبه، فقلت في نفسي: ربما تصبح كلمتي هذه معركة صاخبة لفائدة التدخين وشركاته وزبانيته. ستقوم جريدة الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف [١]، بكتابة مقال صغير بسبعة عناوين عريضة وغليظة مفادها: أن التبغ في خطر، وأن الإرهابيين يهددون بتفجير بناية « لاريجي »[٢] وأنهم يفتون بتحريم التدخين، وهذه فتوى غير مباشرة بقتل المدخنين، وأن إخواننا المدخنين قد أصبحوا خائفين على أنفسهم، وأن على الشرطة أن تشدد الحراسة على « الصاكات » [٣] وما حولها، وأن الاقتصاد الوطني في خطر، نظرا لما تمثله صناعة التبغ وتجارتها من أهمية، وما تدره على ميزانية الدولة من مداخيل، وما تشغله من مئات الآلاف من الناس. بل إن الضرر قد يصل حتى إلى الأطباء والصيادلة ... يا للكارثة.

وبناء عليه سيقوم أصحابنا الحداثيون بحملة مضادة لفائدة « الحق في التدخين » و « الحق في الجسد » و « الحق في حرية استعمال الشفتين والرئتين » و « الحق في الاختلاف والإسفاف والإسراف »، وسيطالب الحداثويون التدخينيون بسن قوانين لتوفير مزيد من الدعم لصناعة السجائر وتجارتها والسماح ببيعها في الصيدليات على غرار عازلهم المطاطي، وسيقوم السياسيون الحداثيون بالتحذير من

---

(١) يقصد الدكتور أحمد الريسوني جريدة الأحداث المغربية التي تمثل تيار الاستئصال وحداثة الابتذال والتي دأبت على تحريف كلام الريسوني وقلب معانيه والتحريض عليه.

(٢) هذا الاسم الفرنسي لشركة التبغ.

(٣) الحوانيت التي يباع فيها التبغ.

حرب العدالة والتنمية الذي ينوي منع التدخين ومعاقبة المدخنين ، فهو حزب لا يستحق البقاء في الخريطة السياسية .

وستقوم «دوزيم» [١] بإنجاز « تحقيق فاعل تارك » تنقل فيه الهلع الذي أصاب المواطنين على حريتهم وأمنهم وسجائرهم ومتعتهم ، وستنقل لنا آراء التلاميذ الذين رسبهم الأساتذة الأصوليون حين اكتشفوا أنهم يدخنون ويشمون [٢] ....

ولا شك أن حملات من هذا النوع يمكن أن تخيف من ينتقد التدخين والمدخنين ، من أساتذة وأطباء ، ومعلمين وخطباء ، ومثقفين وعلماء ، خشية أن يتهموا بمعاداة « السجائر السامية » وهو ما يعني بالضرورة معاداة السامية ، بل قد يتهمون بالتعاطف مع التطرف والإرهاب ، فليس في القنافذ أملس [٣] . وكل هذا وتداعياته ، سيصب في صالح التبغ ويغزز مكانته ، ويدخله في قاعدة « كل مدنس فهو اليوم مقدس » .

بعد هذه الخواطر ، قلت في نفسي : هل أكف عن كتابة هذه الكلمات ضد التدخين عملا بالقاعدة « الأمور بمآلاتها » ؟ أم أكتبها عملا بالقاعدة الأخرى : « الأمور بمقاصدها » ؟

وبعد أخذ ورد بيني وبين نفسي قررت الأخذ بقاعدة أخرى وهي « خير الأمور أوسطها » ، بحيث أكتب ، ولكن لا أقول إلا ما قاله غيري ، ومع ذلك أختصره اختصارا ، وأخففه حيطة واضطرارا ، والله المستعان .

١ – التدخين حرام بالإجماع ، ليس إجماع المسلمين ، ولكن إجماع العالمين ،

---

(١) القناة المغربية الثانية .

(٢) كناية عن التخدير .

(٣) عبارة يستعملها خصوم الحركات الإسلامية ليضعوا الكل في سلة واحدة معتبرين الجميع متشددين ومتطرفين وإرهابيين .

والعهدة في ذلك على الأطباء لا على الفقهاء ، وإنما أنا أحكي ولا أفتي .

٢- وبالإجماع أيضا ، فإن « التبغ يقتل » . وفي جميع الشرائع والقوانين والأعراف ، فإن القتل جريمة ، والقاتل لا بد أن يعاقب ، إما أن يقتل وإما أن يحبس ....

٣- وإذا كان القاتل يدان ويعاقب بشهادة شاهدين أو ثلاثة ، فإن جريمة القتل التي يرتكبها التبغ (حتى لا نذكر أربابه وأباطرته) يشهد عليها الملايين من الأطباء والخبراء ، ومن الضحايا وأهليهم وأصدقائهم ....

فكيف يظل هذا المجرم بريئا موقرا وحرا طليقا ؟ مجرد سؤال .

وأقف عند هذا ولا أزيد ، فإن الطبع يغلب التطبع . وخير الكلام ما قل ودل .

٣٠/ ٦/ ٢٠٠٤م

*****

أصحاب الرذيلة يهاجمون أصحاب الفضيلة ! (*)

شهد الأسبوع المنصرم حملة صحفية مسعورة ضد العلماء وخطباء المساجد، قامت بها صحف حزبية وصحف متحزبة، وترمي إلى تخويف العلماء وإلى منعهم من أداء واجبهم في نصح المسلمين وتنويرهم بأحكام دينهم.

ولا شك أن هذه الحملة العدائية الحاقدة التي قام بها أصحاب الرذيلة ضد أصحاب الفضيلة، إنما هي شكل آخر من أشكال الشذوذ، الذي يحاول أن يفرض وجوده وسطوته في هذه المرحلة من تاريخ المغرب، أما الأمة المغربية المديدة العريقة، والأمة الإسلامية عامة، فإنها لا تكن لعلمائها وأئمتها إلا الحب والتقدير والتبجيل ولو كره الكارهون، وإن أبلغ تعبير عن ذلك هو هذه العبارة التي دأب المسلمون على وصف العلماء بها ومخاطبتهم بها، وهي: « أصحاب الفضيلة »، أو « صاحب الفضيلة ».

وحتى أصحاب الرذيلة قديما – وإلى اليوم – فإنهم لا يختلفون عن عموم الأمة في احترام العلماء وتوقيرهم. بل دائما يتطلعون إلى يوم يلجؤون فيه إلى العلماء ليأخذوا بأيديهم إلى التوبة وإصلاح الحال، وإلى تجاوز سقطاتهم وانحرافاتهم، فالعلماء أطباء للمرضى قبل الأصحاء.

وإنما سمي العلماء « أصحاب الفضيلة » لأنهم حازوا فضيلة العلم، وحازوا فضيلة العمل بالعلم، وحازوا فضيلة تعليم العلم، وفازوا بفضيلة الإعلان والبيان

(*) مقال كتب عقب حملة حزبية وإعلامية يسارية ضد خطيب مسجد الحسن الثاني بالدار البيضاء ورئيس المجلس العلمي المحلي للدار البيضاء الدكتور رضوان بنشقرون حول خطبة تناولت فيها العري والميوعة التي تزداد في فصل الصيف.

للحق ، وفازوا بفضيلة إنكار المنكر وكشف الباطل . ولهذا فضلهم الله تعالى ، وقال في حقهم : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] وقال سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] .

غير أن شرذمة من « أصحاب الرذيلة » قرروا إعلان الحرب على « أصحاب الفضيلة » هذه الشرذمة كنا نعدها من أصحاب اليسار ، فإذا هي في الحقيقة من أصحاب الشمال (بكسر الشين) ، وكنا نعدهم من الاشتراكيين وأصحاب مشروع ، فإذا بهم مجرد استئصاليين ضد ما هو مشروع ، وكنا نراهم من دعاة التأميم ، فإذا هم من دعاة التكميم .

أصحاب الرذيلة هؤلاء لم يكفهم أن العلماء قد حصروا في مساجدهم وبعض مواعظهم ، وتم إقصاؤهم ومنعهم من كل موقع سياسي أو ثقافي أو إعلامي .

ولم يكفهم أن العلماء في مساجدهم ودروسهم تراقبهم المجالس العلمية ، وتراقبهم وزارة الأوقاف ، وتراقبهم وزارة الداخلية بكل وسائلها الظاهرة والخفية ، لم يكفهم ذلك ولم يشف غليلهم ، فسلطوا عليهم التجسس الحزبي ، والتجسس الصحفي ، وراحوا يعقدون لهم محاكم التفتيش ويشنون عليهم حملات التلفيق والتحريض والتخويف ...

وانا أقول لأصحاب الفضيلة : إذا حاربكم أصحاب الرذيلة ، فتلك فضيلة جديدة لكم وشهادة أخرى بمقامكم ، وكما قال الشاعر :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

وإذا لم تكن لكم جرائد فرنكفونية ولا عربفونية ولا محطات إذاعية ولا تلفزيونية تدافع عنكم وترد على أعدائكم ، وتنقل وجهات نظركم ، وإذا لم تكن لكم نقابة

تتبني قضيتكم ، فحسبكم ما تعرفونه من قول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴾ [الحج : ٣٨] .

٧/ ٧/ ٢٠٠٤ م

*****

شمش الإسلام تشرق من لندن (*)

شهدت العاصمة البريطانية لندن خلال الأسبوع الثاني من هذا الشهر (يوليوز ٢٠٠٤) أنشطة إسلامية عالمية رفيعة المستوى ، كان من أبرزها انعقاد الدورة الثالثة عشرة ، للمجلس الأوربي للبحوث والإفتاء ، وانعقاد المؤتمر التأسيسي للاتحاد العالمي للعلماء المسلمين ، والمؤتمر العالمي لنصرة الحجاب . وكل هذه المؤتمرات تمت بحضور عدد كبير من العلماء والشخصيات من مختلف الدول الإسلامية والأوروبية ، وعلى رأسهم العلامة الكبير الدكتور يوسف القرضاوي .

الإنجاز الأكبر ضمن هذه الأنشطة هو بلا شك تأسيس أول هيئة عالمية لعلماء المسلمين ، وقد ضمت هذه الهيئة علماء من كافة المذاهب الإسلامية ومن أعظم أقطار العالم الإسلامي . وقد صادق المؤتمر على اسم الهيئة الجديدة وهو « الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين » ، واختار بالإجماع العلامة القرضاوي رئيسا لهذا الاتحاد ، وهو صاحب الفكرة والدعوة إليها والمشرف على مختلف التحضيرات التي مهدت لهذا المؤتمر ، ولهذا الحدث التاريخي العظيم . كما صادق على النواب الثلاثة للرئيس ، وهم السادة الأجلاء محمد على التسخيري من إيران ، وأحمد الخليلي من عُمان ، وعبد الله بن بيه من موريتانيا ، كما صادق على مجلس الأمناء الذي اجتمع فور اختتام المؤتمر واختار الدكتور محمد سليم العوا من مصر أمينا عاما للاتحاد .

كان أول من تناول الكلمة في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر هو السيد الأمين العام للمنظمة المؤتمر الإسلامي الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلو ، الذي تم تقديمه

(*) كتب بعد عودته من المؤتمر التأسيسي لاتحاد العلماء المسلمين حيث اختير الريسوني ضمن الأمانة العامة .

بصفته أول أمين عام منتخب ، حيث كان أسلافه على رأس هذه المنظمة يتم اختيارهم عبر التوافقات والتحالفات بين أقطاب المنظمة .

اللافت في كلمة الدكتور أوغلو (وهو تركي) هو اللغة العربية الطليقة التي تكلم بها . وكان قد اعتذر عن حضور هذا المؤتمر وأناب عنه غيره ، بسبب مهامه وارتباطاته الكبيرة ، ولكنه لما علم بالحملة الشرسة التي قام بها اللوبي اليهودي واليمين المتطرف في بريطانيا ضد هذا المؤتمر من أجل منعه أو إفشاله ، بدعوى أن القرضاوي يؤيد العمليات « الإرهابية » في فلسطين ، فيجب اعتقاله بتهمة التحريض على الإرهاب ، أو طرده على الأقل من بريطانيا ، لما علم بذلك قرر المجيء بنفسه لنصرة العلماء ومؤتمرهم والمساهمة في إنجاح المؤتمر ، معتبرا أن حضوره قد صار فرض عين بعد أن كان فرض كفاية .

رئيس الاتحاد العالمي للعلماء المسلمين ، في كلمته الختامية وهو يشكر مختلف الجهات التي ساهمت في إنجاح المؤتمر ، لم يفته أن « يشكر » اليمين الصهيوني الذي أتاح للمؤتمر نجاحا إضافيا ، إعلاميا وسياسيا ، وجلب له مزيدا من المصداقية ومن الحماية من الحكومة البريطانية ، وخاصة من عمدة لندن ، الذي دافع بقوة عن الشيخ القرضاوي وعن براءته من مزاعم أعدائه وحملاتهم ، ووجه له الدعوة للعودة إلى لندن .

كثير من العلماء كانوا يتأسفون وهم يرون هذا المؤتمر ينعقد خارج العالم الإسلامي ، بعد الاعتذار والتحفظ من عدد من الدول الإسلامية عن إيوائه ، ولكنهم فرحوا وهم يرونه يحقق نجاحه التاريخي في جو من الطمأنينة ومن الحرية الكاملة ، دون تدخل ولا ضغط من أحد ، وفرحوا أكثر حينما رأوا شمس الإسلام تشرق من لندن ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

قديما قالوا عن العلامة الكبير القاضي عياض السبتي وكتابه « مشارق الأنوار » :

مـــشارق أنـــوارٍ تبـــدَّت بـــسبتةٍ ومــن عَجَــبٍ أن المــشارق بــالغربِ

واليوم نستطيع أن تقول :

مـــشارق أنـــوارٍ تبـــدَّت بلنـــدنٍ ومــن عَجَــبٍ أن المــشارق بــالغربِ

٢١/ ٧/ ٢٠٠٤ م

*****

ما قل ودل من الأقوال والأفعال

نحن الآن في فصل الصيف، في موسم الإجازات والزيارات والأسفار واللقاءات، وموسم الولائم والحفلات. في هذا الموسم يتجدد تفكيري في بعض الظواهر والعادات التي تزداد وتبرز في هذا الموسم، وإن كانت موجودة فينا على الدوام، هي آفات يسيرة خفيفة ولكنها تصبح ضارة ومزعجة حينما تصبح معبرة عن منهج ونمط في الحياة. هذه العادات يمكن جمعها تحت اسم « فضول الأقوال والأفعال » ، أو « زوائد الأقوال والأفعال » ، وأعني بها ما نعتاده من الأقوال والأفعال مما ليس له معنى ولا فائدة ولا موجب، بل يكون مجرد مضيعة للجهد والوقت أو المال، وكل ما في الأمر أنه عادة وأنه جرى به العمل، وكذلك وجدنا من قبلنا، أو رأينا من حولنا يفعلون.

- وأبدأ بما نبدأ به إذا التقينا، وهو التحية والسلام، وأفضل السلام في الإسلام يقع في جملة واحدة، خفيفة على اللسان. ثقيلة في الميزان، فإذا كان ولا بد فمصافحة خفيفة مثل تحية اللسان. الآفة التي تكثر بيننا اليوم هي العناق بمناسبة وبدون مناسبة، وقد ينضاف إلى العناق التقبيل. والعناق لا يبقى مرة واحدة، بل هو في الغالب مرتين عن اليمين وعن الشمال. وأحيانا يصير عناقا مكررا مثنى وثلاث ورباع .... وتصور نفسك في مناسبة ما تسلم على عشرات الناس ...!

ورضي الله تعالى عن إمامنا مالك، الذي كان يعتبر المعانقة مكروهة، وأنها من فعل الأعاجم. ومن قال بها أو استحبها من الفقهاء، فإنما يكون ذلك بعد سفر أو ما في حكمه من الفراق الطويل، وأما تثنيتها وتثليثها وتربيعها، وإضافة التقبيل إليها، فهذا ما لم يقل به أحد من العلماء. فكيف بنا اليوم وقد أصبح ذلك يقع حتى بين الرجال والنساء من العصريين والعصريات !!

- وأما عن زوائد الأقوال فحدث ولا حرج . يلتقي شخصان فتسمع منهما أو من أحدهما : كيف أنت ؟ كيف حالك ؟ كيف الصحة ؟ كيف الأهل ؟ كيف العائلة ؟ كيف الأولاد ؟ كيف الأمور ؟ هل أنت بخير ؟ كل شيء بخير ...؟ وحتى الاتصالات الهاتفية لا تعفى من هذه اللائحة الطويلة من الأسئلة والأجوبة الفارغة ! وحتى المناسبات العلمية والثقافية لا تسلم من زوائد الكلام وما فيها من تطويل وتثقيل . كثيرة هي الندوات التي سمعت فيها مسير الجلسة ينبه المتحدث إلى أن الوقت قد انتهى أو قارب الانتهاء ، فيكون الجواب هو : لم أدخل بعد في صلب الموضوع ، أو : أهم شيء لم أصل إليه بعد . وعادة ما يصبح الموضوع الحقيقي هو الذي يقدم في الوقت المغصوب .

وأما المتدخلون من الجمهور ، فلا بد لكل واحد منهم من أداء فريضة الشكر والثناء والتهنئة على هذه الندوة أو المحاضرة ، وحتى المتدخل الخامس عشر والثاني والعشرون لا يمكن أن يتخلى عن هذا اللغو المتكرر . وأتذكر أنني كنت مرة أسير إحدى جلسات ندوة علمية دولية ، وحسب الوقت المتاح أعطيت لكل متدخل من الجمهور ثلاث دقائق ، فلما أعطيت الكلمة لأحدهم بدأ في التنويه والشكر والتمهيد والتقديم ، فلما استعجلته بدأ يحتج على الدقائق الثلاث التي منحت له وهو القادم من البلد الفلاني البعيد و .... و... ، فقلت له : بقي لك دقيقة واحدة ، فازداد غضبا واحتجاجا ، وقرر سحب تدخله الذي كان قد انتهى وقته !

ألسنا في أمس الحاجة إلى « ما قل ودل » من الأقوال والأفعال ؟

٢٨/ ٧/ ٢٠٠٤ م

*****

مدونة الأسرة
بين أسباب النزول وأسباب القبول (*)

هناك إجماع أو شبه إجماع لدى المتتبعين والمهتمين على أن أهم إنجاز عرفه المغرب في عهده الجديد – عهد الملك محمد السادس – هو « مدونة الأسرة » . وهذا الإجماع يستند إلى إجماع آخر ، هو المتمثل في مواقف الترحيب والرضا والقبول الذي حظيت به هذه المدونة لدى جميع الأطراف والاتجاهات الدينية والسياسية والحقوقية .

لكي ندرك سر هذا الترحيب والقبول ، ينبغي أن نرجع إلى السياق وأسباب النزول ، فمن المعلوم أن سنة ١٩٩٩ شهدت الإعلان عما سمي « الخطة الوطنية لإدماج المرأة في التنمية » ، وهو المشروع الذي تبنته أطراف حكومية وحزبية في ظل ما عرف يومئذ بحكومة التناوب . وكان المشروع في طريقه إلى التمرير والاعتماد من طرف هذه الحكومة ، لولا المعارضة الشديدة والواسعة ، التي لقيها في مختلف أوساط الشعب المغربي بصفة عامة ، وفي أوساط العلماء والخطباء ورموز الثقافة الوطنية الإسلامية بصفة خاصة . وقد احتدم الجدل واحتدمت الحملات والحملات المضادة بين أنصار هذا المشروع والرافضين له على مدى عدة سنوات ، خاصة منها سنتي ١٩٩٩ و ٢٠٠٠م .

أسباب الرفض الشديد الذي قوبلت به « خطة إدماج المرأة في التنمية » كثيرة ومتنوعة ، لعل أهمها ما يلي :

(*) كتب توضيحا وردا بعد التشويش والتلبيس على موقف حركة التوحيد والإصلاح وحزب العدالة والتنمية من مدونة الأسرة التي أقرها الملك وألقى خطابا في شأنها عند افتتاح أشغاله خريف سنة ٢٠٠٤ ، وقيل : إن الحركة والحزب غيرا موقفيهما وانبطحا أمام الأمر الواقع .

١ - الاعتماد الكلي لهذه الخطة على المرجعية الغربية والأممية ، مع استهداف واضح للمرجعية الإسلامية الوطنية .

٢- انخراطها الصريح في الانتماء الخارجي والاحتضان الأجنبي ، ابتداء من تمويل البنك الدولي المعترف به في صدر الخطة ، إلى تمويلات أخرى مصرح بها ، مرورا بتحرير نصها الأصلي باللغة الفرنسية ، وانتهاء إلى رفع تقارير الإنجاز في مختلف مراحله إلى الجهات الخارجية المختصة .

٣- التفرد والأحادية المذهبية في إعداد هذه الخطة ، حيث لم يشترك في إعدادها لا العلماء ، ولا معظم الأحزاب الوطنية ، ولا الجمعيات الإسلامية ، ولا الخبراء والمختصون القانونيون . بل هؤلاء جميعا لم يكن لهم حتى العلم بما يجري إعداده وبمن يقومون على إعداده ....

البديل الذي أنقذ البلاد وأرواح العباد ، كان هو « مدونة الأسرة » . المدونة التي حظيت بما أصبح يوصف بالإجماع الوطني حولها ، أسباب هذا النجاح وهذا الإجماع تكاد تكون هي نقيض الأسباب التي أدت بالخطة إلى الفشل والرفض :

١ - الرعاية الملكية والإشراف الملكي والتوجيه الملكي الذي رافق إنجاز هذه المدونة من بدايتها إلى نهايتها .

٢- هذه المدونة جاءت عملا وطنيًا خالصا وباجتهاد وطني حقيقي ، في ظل المرجعية الإسلامية والمذهب المالكي ، وباستحضار واعتبار ومراعاة للواقع المغربي ، مع الاستفادة أيضًا من مكتسبات العصر ومقتضياته وتجاربه .

٣- اللجنة التي أعدت المدونة تشكلت من مستويات عالية من ذوي الاختصاص ، وضمت اختصاصات شتى ، مع تنوع في التوجهات ووجهات النظر ،

ثم اشتغلت هذه اللجنة وتناقشت ما يقرب من ثلاثين شهرا ، استمعت فيها إلى عشرات الهيئات والمنظمات ، وتلقت عشرات المراسلات والاقتراحات والملاحظات ، وأخذت كل ذلك بعين الاعتبار .

لقد أصبحت هذه المدونة وطريقة إنجازها عملا نموذجيا مرجعيا للعمل الوطني البناء الناجح . وإن في ذلك لعبرة لمن أراد أن يعتبر .

٤/ ٨/ ٢٠٠٤ م

******

كذب حتى النصر

مساء يوم الخميس المنصرم لقيني أحد الأساتذة الزملاء ، وبعد حديث قصير حول بعض هموم المهنة قال لي : هل قرأت ما كتبوه عنك اليوم ؟ قلت : لا ، لم أر شيئا ، من كتب ؟ قال عبد الكريم الأمراضي [١] في جريدته التي سميتها جريدة الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف . قلت : أنا لا أشتري هذه الجريدة منذ سنوات ، قال : هي عندي في السيارة أعطيكها الآن .

اطلعت فعلا على ما كتبه صاحبنا الأمراضي ، فوجدتني أضحك وأضحك ، تماما مثلما في صورتي المنشورة – والمفضلة – عندهم ضحكت من هذا الخيال المدهش ، ومن هذه القدرة الفائقة على الاختراع والكذب بلا حياء و « بلا حدود » ، ومن هذه الطاقة المذهلة على الغيظ والحقد والكراهية .

ما هالني هذه المرة هو كذبه وتدليسه حتى على تصريحات جلالة الملك ، والأمر هنا لا يتعلق بشيء مجهول أو خفي أو مبهم ، بل يتعلق بخطاب رسمي علني هو أشهر خطاب ملكي داخل المغرب وخارجه ، فقد تحدث صاحب شعار « كذب حتى النصر » [٢] عن « الخطة » المعلومة وذكر أنها تضمنت « رفع سن زواج الفتاة إلى ١٨ سنة ، وإلغاء الولاية بالنسبة للفتاة البالغة ، وإقرار الطلاق القضائي وتقنين التعدد واقتسام الثروة المراكمة أثناء فترة الزواج » ، ثم أضاف بدون خجل : « وعندما خطب الملك معلنا تبنيه للنقط الخمس المذكورة » .

---

(١) النحويون لا يجيزون النسبة إلى الجمع (مثل الأمراضي نسبة إلى الأمراض) إلا في حالات استثنائية شاذة كما في حالتنا هذه . (الريسوني)

(٢) نرجو ألا يكون شعاره الحقيقي المعتمد هو « كذب حتى الموت » ، أي احتراف الكذب إلى آخر رمق . (الريسوني)

ولو أن هذا المدلس قال : إن الملك استجاب لأنصاف هذه المطالب لكان معه بعض الصحة ، أما أن الملك « تبنى » هذه النقط الخمس فكذب وتحريف ، وإليكم بيان ذلك .

- نصت « الخطة » على « الرفع من سن الزواج إلى ١٨ سنة ، وذلك طبقا للاتفاقية الدولية ...إلخ » ، أما ما جاءت به المدونة الجديدة مع رفع سن الزواج إلى ١٨ سنة ، فهو إمكانية الزواج قبل هذه السن بإذن من قاضي الأسرة ، فالزواج قبل ١٨ سنة يبقى ممكنا لمن احتاجوا إليه وطلبوه ، فالفرق بين هذا وذاك واضح لكل بصير .

٢- الملك لم يقل بإلغاء الولاية ، وإنما أصبحت الولاية في المدونة الجديدة حقا للمرأة « تمارسه الراشدة حسب اختيارها ومصلحتها » ، فكيف تمارس المرأة شيئا تم إلغاؤه ؟ فالولاية باقية لمن هم مقتنعون بها وراغبون في التمسك بها ، وهي مقررة ومسلمة لا غبار عليها في المذهب المالكي ، الذي هو مذهب المغاربة أجمعين ، والمدونة لم تحرمهم من ممارستها ، وليس فيها ولا في خطاب الملك هذا « الإلغاء المكذوب » .

٣- المدونة الجديدة لم تأخذ أبدا بالطلاق القضائي الذي نصت عليه « الخطة » في الصفحة ١٢٨ بقولها : « بإقرار الطلاق القضائي كوسيلة وحيدة لفسخ عقد الزواج » ، فما زال الطلاق الذي يوقعه الزوج بإرادته قائما مكفولا ، مع ما فيه من تبعات وحقوق مكفولة للزوجة والأولاد .

٤- الملك لم يتبنَّ « تقنين التعدد » ، لأن تقنين التعدد دائما موجود ، وحتى تقييده بإخطار الزوجتين وبإذن القاضي فهو معمول به منذ سنة ١٩٩٣ ، فجاءت المدونة الجديدة بمزيد من التقييد والتدقيق ، أما الذي طالبت به الخطة ولم يقبله الملك فهو

منع التعدد بصفة نهائية . تقول الخطة في الصفحة ١٢٩ « تعدد الزوجات : تشكل هذه المؤسسة تهديدا للاستقرار الأسري ... ولذلك يجب حذفها لا فقط تقييدها » .

٥- أما حكاية « اقتسام الثروة » التي عبرت عنها الخطة « بأن يسمح للمرأة المطلقة بنصف هذه الممتلكات » ، فلا وجود لها البتة لا في الخطاب الملكي ولا في المدونة الجديدة ، فالقول بأن الملك – وقاه الله شر الكذابين – قد تبناها ، إنما هي الكذبة الأخيرة والكبيرة ضمن أكاذيب فقرة صغيرة تكتب في ثلاثة أسطر ، ولله في خلقه شؤون .... !

١١/٨/٢٠٠٤ م

*****

العربان يعلمون الأمريكان

حينما قررت الحكومة المعينة في العراق إغلاق مكتب قناة « الجزيرة » تذكرت أن صحافيا مغربيا هو المدعو عبد الكريم الأمراني ، صاحب « الأحداث المغربية » ، سبق له أن طالب الولايات المتحدة الأمريكية بمزيد من الضغط على قناة « الجزيرة » ، وعلى دولة قطر حتى تغير القناة سياستها الإعلامية ، جاء ذلك في حوار له مع موقع « إيلاف » منذ عدة شهور .

وكان هذا الشخص قد أعلن كذلك في نفس الحوار أنه يفضل أن يكون ماسح أحذية في « إسرائيل » (نعم يستطيع أن يفعلها) على العيش في ظل حكومة فيها أصوليون ونحن نهنئه على وجود هذه الفرصة ، وعلى وجود أحذية ملوثة وملطخة في « إسرائيل » يمكنه مسحها فرارا من بلده المهدد بمشاركة الأصوليين في حكومته ، نسأل الله لنا وله السلامة والعافية [1] .

الإدارة الأمريكية فعلا تستمع إلى أمثال هؤلاء ، لأنهم يقدمون لها الآراء الشاذة الجريئة التي لا تخطر لها على بال ، ولأنها تتخذ هؤلاء مقياسا تعرف به مدى إمكانية تمرير بعض مواقفها وقراراتها حيث تعرف من خلالهم أن هناك من سيرحب بمثل تلك التدابير ويدافع عنها ، من قبيل ما اتخذته في حق قناة « الجزيرة » .

ومن هذا القبيل أنها استأنست هذه الأيام في حربها ومجازرها بالنجف ، برأي

---

(١) أنا أسأل الله السلامة والعافية وحسن الخاتمة لي ولكل الناس ، وليس كما ظن بعضهم ، أو تعمد تحريف كلامي حين رجوت لهم ألا يكون شعارهم المعتمد عندهم هو « كذب حتى الموت » ، قاصدا ألا يحضر أجلهم المقدر عند الله إلا وقد تابوا من الكذب . فإذا بهم يعتبرون هذا الرجاء تهديدا بالقتل !! وقديما قالوا : من ساءت أفعاله ساءت ظنونه مرة أخرى أرجو لنفسي ولهم السلامة والعافية وحسن الخاتمة (الريسوني) .

المدعو « أدنان في الزر » محافظة النجف ، والمدعو « إياد علاوي » رئيس الحكومة الأمريكية ببغداد ، حينما أعلنا تأييدهما للهجوم الأمريكي الكاسح والطاحن على مدينة النجف بما فيها من مساجد وأضرحة ، وبذلك ارتفع التهيب والتحرج الأمريكي الذي كان يقلب حساباته قبل مهاجمة « المقدسات » الشيعية ، فإذا برجلين « شيعيين » يقولان لهم : لا بأس ، اضربوا ، سنعيد بناء الأضرحة والصوامع والجوامع فيما بعد .

تذكرت كذلك ما وقع قبل أكثر من سنتين ، حين أعلن مسؤول أمريكي كبير عن تسليم عدد من المعتقلين العرب إلى بلدانهم ، وحين سئل عن سبب هذا التسليم ، قال بأن إمكانيات التحقيق معهم هناك أفضل وأكثر فاعلية . غير أن الأمريكيين سرعان ما استوعبوا الدرس العربي ، فقد أخذوا الصنعة وبدؤوا يطبقونها بأنفسهم ، وقد ظهر ذلك جليا من خلال اللقطات – أو القطرات – التي تسربت من سجن أبو غريب ، وللأسف فإن المعتقلات العربية الأخرى لا تدخلها أشعة الشمس فضلا عن أشعة آلات التصوير .

ليس الأمريكان وحدهم هم من يتعلم الصنعة العربية ويستفيد من دروسها . ففرنسا مثلا أخذت فكرة منع الحجاب من الاستئصاليين التونسيين (اللائكية الفرنسية تتعلم من اللائكية التونسية !) ، فقبل بضعة عشر عاما منع الحجاب في تونس ، وخاصة في الإدارات والمؤسسات التعليمية ، والابتكار التونسي هنا ليس محصورا في فكرة منع الحجاب ، ولكن يتجلى أيضا في الحجة التي قام عليها هذا المنع ، قالوا : إنه لباس طائفي ، ثم جاء الفرنسيون – متأخرين – فقالوا : هذا الحجاب لباس طائفي ورمز طائفي ، فلذلك نمنعه ، بقي عليهم فقط أن يعترفوا بالسبق لأهله ، حتى ولو كان ظلما وتخلفا ...

١٨/ ٨/ ٢٠٠٤ م

ضرورة التمييز بين الحداثيين والأحداثيين (*)

منذ ما يزيد عن عشر سنوات ، خفتت وأفلت بعض المصطلحات والشعارات ، وسطعت وراجت مصطلحات أخرى كانت أقل تداولا ورواجا . فقد توارت وخفتت مصطلحات : التقدمية ، والثورية ، والاشتراكية ، والصراع الطبقي والرجعية والإمبريالية ... بينما قفزت إلى التداول اليومي المكثف شعارات ومصطلحات : الحداثة ، والديمقراطية ، وحقوق الإنسان ...

والحقيقة أن هذا التغير في المصطلحات والشعارات المعتمدة ، يعكس تطورا فكريا وثقافيا وسياسيا إيجابيا يرمي إلى التخلص من « الخردة » (١) الإيديولوجية والعقائدية البائرة ، بحثا عن صيغ ومضامين أكثر واقعية وأكثر براجماتية وأكثر قبولا في المجتمع المغربي .

وفعلا ، فإن الحداثة والتحديث ، والديمقراطية والدمقرطة ، وحقوق الإنسان وكرامة الإنسان ، ودولة الحق والقانون ، والعدالة والتنمية ، ومحاربة الفساد وتخليق الحياة العامة ... هذه الشعارات التي تمثل عناوين السنين العشر الأخيرة ، هي شعارات ومضامين وأهداف لا نزاع فيها ولا اختلاف حولها إلا في بعض التفصيلات والجزئيات والشكليات . فنحن نرى أن هذه الشعارات الجديدة والمبادئ الجديدة أصبحت قاسما مشتركا بين مختلف المدارس والتوجهات الفكرية والسياسية .

(*) قرر المكتب التنفيذي صيف ٢٠٠٤ الرد على صحيفة الأحداث المغربية بسلسلة من المقالات انتدب لها بعض الكتاب ، وشارك الريسوني فيها بهذا المقال ومقالات أخرى .

(١) استعمال هذا التعبير المفكر الأستاذ محمد سبيلا (أستاذ الفلسفة بجامعة محمد الخامس بالرباط) .

فالحكومات المتعاقبة في هذه الفترة ، واليساريون ، والليبراليون ، والإسلاميون والأمازيغيون .... الجميع يلتقون حول هذه المبادئ ، والجميع يقبلون ويتمسكون بعنوانها الجامع « الحداثة والتحديث » .

ويتفرع عن هذه الحداثة إقامة صروح أساسية وضرورية لا بد منها في كل نهضة وتحديث : التعليم الناجح الفعال ، والبحث العلمي المبدع ، محو الأمية ، الارتقاء بالوضع الثقافي ، حل معضلة البطالة ، بناء اقتصاد قوي ومنتج ، تحرير الإعلام والصحافة وإعطاؤهما ما يلزم من الحرية والدعم ، بناء مؤسسات ديمقراطية نزيهة ، إدارة سليمة في خدمة الوطن والمواطن ...

هذا ما يمكن أن نسميه « الخيار الحداثي الوحدوي » أو « الخيار الحداثي الجامع » ، وداخل هذا السقف الجامع لتيارات عدة ، يمكن أن يقع الاختلاف والنقاش والتدافع ، حول قضايا وإشكالات وتفصيلات كثيرة يتفاوت الناس في تقديرها وترتيبها ، ويتنافسون في حسن تنزيلها وتطبيقها وتحقيقها ، وكل هذا طبيعي ومفيد وبناء .

ما يشوش اليوم على هذا « الخيار الحداثي » ويسعى إلى تشتيته وتشويهه هو ما يمكن أن نسميه « الخيار الأحداثي »[1] .

أصحاب « الخيار الأحداثي » يظنون – هم واهمون – أن رسالتهم المقدسة هي محاربة التيار الإسلامي ونسفه واستئصاله . ولكنهم في الحقيقة إنما يشوهون الحداثة والحداثيين والديمقراطية والديمقراطيين ، بسبب إصرارهم على الانتساب إلى هذه المبادئ النبيلة ، وهم أعدى أعدائها وأخطر الناس عليها . لقد جعلوا من « الحداثة » التي يمثلونها مجرد نزعة عدائية استئصالية ، وجعلوا من صحيفتهم مجرد أداة

---

(١) نسبة إلى جريدة « الأحداث المغربية » وتيارها الاستئصالي .

تحريض ووشاية وتهديد وإرهاب فكري وسياسي . وجعلوا نموذجهم المجتمعي الأحداثي ، هو عولمة الدعارة والشذوذ الجنسي وكافة الموبقات والرذائل .

صحيح أن أصحاب « الأحداث » هم أشخاص أحداث وأفراد معدودون ، ولكن المشكلة أنهم جعلوا جريدتهم ناطقا رسميا باسم الحداثة والحداثيين ، بل نصبوا أنفسهم دركا على كافة الحداثيين والتقدميين ، يردعون ويقمعون كل من خالفهم وحاد عن نهجهم .

فمتى يتحرك الحداثيون الحقيقيون لوقف الأحداثيين التحريفيين عند حدهم وتبرئة الجسم الحداثي منهم ؟

٢٠٠٨/٨/٢٥ م

*****

الكيل بمكيالين
حلال علينا حرام عليكم

يذكر السادة العلماء بالقرآن الكريم أن أول ما أنزل الله بالمدينة هو سورة المطففين التي مطلعها : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين : ١-٦] .

أتذكر هذه الآيات الكريمة كلما رأيت وسمعت ما أصبح يعرف اليوم بسياسة الكيل بمكيالين ، وأتعجب كيف أن أول خطوة تشريعية في مجال العلاقات والمعاملات وضعها الإسلام لمجتمعه في المدينة المنورة ، هي إبطال الكيل بمكيالين والوزن بميزانين ، أو الكيل والوزن بطريقتين مختلفتين ، كما كان يفعل بعض التجار يومئذ ... كانوا إذا اشتروا لأنفسهم من غيرهم وفوا وألحوا في توفية الميزان والمكيال ، فإذا كالوا أو وزنوا لغيرهم أخسروا وطففوا وبخسوا .

هذا الأسلوب الأناني وهذا النهج الدنيء حرمه الله عز وجل ، وكان القرآن المكي أيضا قد سبق إلى النهي العام عن السلوك الفاسد حين قال تعالى في سورة الرحمن ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن : ٩] .

اليوم أصبح الكيل بمكيالين – أو بكيلين – مختلفين سمة بارزة لدى كثير من السياسيين وغير السياسيين ، بل أصبح سياسة قارة مطردة بلا خوف ولا حياء ، لا من العباد ولا من رب العباد .

هناك مواثيق وقوانين وقرارات تتم إماتتها ودفنها لمجرد أنها في صالح المستضعفين من المسلمين وغير المسلمين . وأخرى يتم إبرازها وتفعيلها وإحاطتها

بالنفاذ المعجل والمضخم ، لمجرد أنها ضد المستضعفين وفي خدمة الأقوياء المستكبرين . وكل الناس هنا يعرفون النماذج البارزة المتعلقة بالسياسات الدولية عامة ، والمواقف الأمريكية خاصة .

من المضحكات المبكيات هذه الأيام أن أمريكا ومعها – إسرائيل – ، أو العكس ، تطالب سوريا بالانسحاب من لبنان وعدم التدخل في شؤونه بينما لا وجه للمقارنة بتاتا بين الوجود السوري بلبنان ، والكل يعرف حدوده وسياقه ومشروعيته وفائدته ، وبين الوجود العدواني والاحتلال القهري والبقاء المدمر ، للجيوش الأمريكية وتوابعها في العراق ، ومع ذلك فأمريكا تطالب غيرها بالانسحاب وعدم التدخل ... !! ويطالبون سوريا بالامتثال لقرار مجلس الأمن ، والأمم المتحدة منذ قرن !

من الأمثلة الأخرى ـ المضحكة المبكية أيضاً – أن تجد بعض الحكام الانقلابيين يدينون المحاولات الانقلابية الرامية للاستيلاء على الحكم ، وخاصة منها الفاشلة أو المفترضة أو المختلقة ، وهم بالانقلاب قد وصلوا إليه . فالانقلابي الذي سطا على الحكم وتمكن منه ، يصبح بطلا ورئيسا وقائدا ، ولكن غيره إذا حاول ذلك – صدقا أو كذبا – يكون مجرما مدانا مصيره الإعدام ، بينما القاعدة الكونية تقول : « **كما تدين تدان** » ، فمن جاز له الانقلاب على غيره جاز لغيره الانقلاب عليه جزاء وفاقا . فهل بقي من منطلق مشترك أو ميزان موحد يحتكم الناس إليه ؟ (*)

*****

(*) كتب على إثر محاولات انقلابية فاشلة في موريتانيا ، أعقبتها اعتقالات واسعة ، خلال سنة ٢٠٠٤ .

سياسة المهرجة والبهرجة إلى متى ؟

قبل بضع أسابيع ، أخذت سيارتي إلى الحارس الليلي كما هي العادة ، وقبل أن أغادر السيارة قافلا إلى بيتي ، جاء الحارس مهرولا وهو يناديني ليقول لي : « إنهم أخبروه بعدم السماح بمبيت السيارت في هذا الشارع ، كما في الشوارع المجاورة ، لأن السيد العامل سيمر من هنا غدا أو بعد غد ..... »

في الصباح لم أجد صعوبة في إدراك السر وراء اختفاء حفر بعض الشوارع التي تم ترقيعها وتعبيدها وتشطيبها من كثير من الأشياء ، بما فيها السيارت ، كما تم إغلاق بعض المحلات غير اللائقة ، منها بعض المحلات الميكانيكية .

تساؤلات وتعليقات مؤلمة جالت في نفسي ، ولكن الذي يخفف ألمها – وأحيانا يزيده ويعمقه – هو أننا ألفنا هذا السلوك في طول المغرب وعرضه ، وحتى التساؤلات والتعليقات في هذا المقام ليس لها كبير جدوى ، لأن جميع المواطنين يعرفونها ويرددونها ويتندرون بها ، بل أحيانا تجدهم يستحسنون مثل هذا السلوك ، بحجة أنهم يستفيدون من المسؤولين الغشاشين الخداعين المنافقين بعض هذه « الإصلاحات » الترقيعية والتنظيفية !! فهي في نظرهم مكسب على كل حال .

ومع هذا ، فإن الواجب لا يسقط ، واجب الراصد لهذا السلوك الذي يغرقنا في التخلف أكثر فأكثر ، واجب الإنكار الدائم ، واجب التنبيه والتذكير الدائم لكل من يعنيهم الأمر ، من باب قوله تعالى : ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود : ٧٨] . فلعل رشداء قومنا ومسؤولينا تنفعهم وتحركهم أمثال هذه الشكاوي المرة المؤلمة ....

أخبرني أحد المثقفين الغيورين عن حالة وقعت قبل نحو من عشرين سنة ، فقد تم إبلاغ المسؤولين في مدينته بزيارة ملكية مرتقبة ، هي الأولى من نوعها لتلك المدينة المتواضعة المهمشة ، وبدأ عامل المدينة يعد العدة لهذه الزيارة ، وشكل عدة

لجان ، كان من بينها لجنة التزيين ، ولجنة ثقافية ، وكان محدثي ضمن هذه اللجنة الثقافية المسكينة ، وبلغ إلى علمه أن لجنة التزيين قد رصد لها مبلغ خمسة ملايين درهم (أي خمسمائة مليون سنتيم) ، تفاءل صاحبنا المثقف وتحمس بفضل هذا السخاء الذي ستستفيد منه مدينته المهمشة ، فذهب إلى السيد العامل يحمل إليه اقتراحا سعيدا ومشرفا ، يكون من بين إنجازات اللجنة الثقافية بمناسبة الزيارة الميمونة ، وهو أن تتم طباعة كتاب مخطوط ونفيس يوجد بالمدينة من تأليف أحد علمائها ، ويتعلق بتاريخ الدولة العلوية الشريفة ، وستشتغل اللجنة بالسرعة اللازمة ليكون الكتاب جاهزا ويقدم هدية لجلالة الملك عند زيارته .

رحب السيد العامل بالفكرة وهنأ صاحبها عليها ، فلما انتقل الحديث إلى مسألة الطباعة والميزانية اللازمة لذلك ، قال السيد العامل : للأسف ليس لدينا ميزانية لهذا الأمر . قال المثقف الغيور : خمسمائة مليون المخصصة للتزيين يمكن أن نأخذ منها مليونا واحدا نطبع به الكتاب ، قال العامل : لا أستطيع ، لا يمكن . ذهب الرجل وذهبت مبادرته ....

وحدثني أحد أصدقاء المرحوم المجاهد الحاج أحمد معنينو ، نقلا عنه ، أن بعض المسؤولين اتصلوا به وأبلغوه قرارهم تنظيم حفل تكريم له . فسألهم : ماذا سيكون في هذا التكريم ، قالوا : سندعو حوالي خمسمائة من شخصيات المغرب في مهرجان حاشد تلقى فيه كلمات عن شخصيتك ومكانتك وجهادك الوطني .... ثم يقام حفل عشاء .... إلخ . قال : كم سيكلف هذا الحفل ؟ ... فأخبروه بالمبلغ الكبير ، فقال ، أنا عندي مذكرات في عدة أجزاء أقترح تكريمي بطباعتها بهذا المبلغ أو بجزء منه ، فرفضوا ذلك وتمسكوا بالمهرجة والبهرجة ولا شيء سوى المهرجة والبهرجة ، وكذلك كان .

١٥/ ٩/ ٢٠٠٤ م

الجراد الإفريقي والجراد الأمريكي ... دعوة للعدل والمساواة

منذ سنوات تقريبا ، تتعرض عدة دول إفريقية – منها المغرب – لموجات متتالية من الجراد ، حيث اكتسحت جحافله المكثفة مساحات زراعية ورعوية شاسعة من هذه البلدان ، بل وصل الأمر إلى حد اكتساح عاصمة إحدى هذه البلدان [1].

وقبل شهور من زحف جحافل الجراد الإفريقي ، كانت جحافل أخرى من الجراد الآدمي قد بدأت تجتاح مناطق أخرى من العالم . إنه الجراد الأمريكي المستقدم من شتى القارات والمحيطات من أجل غزو العراق ، مرورا واستقرارا بالدول المجاورة والقريبة ، وإلى أمد لا يعلمه إلا الله .

الجراد الإفريقي تتكون جحافله من حشرة صغيرة ضعيفة ، وهو جراد ابن بيئته ، ويتحرك أعزل من كل شيء ، ولا يريد سوى أن يقتات من بعض خشاش الأرض وعشبها ، أما الجراد الأمريكي فهو أجناس شتى ومن أقطار شتى ، ومسلح بكل شيء ، ويبحث عن كل شيء ، ما على ظهر الأرض وما في بطنها ، يقتل ويدمر ، ويسجن ويعذب ....

الجراد الإفريقي يمر مرّا سريعا ، يقتات ثم يمضي . وحتى حينما اكتسح العاصمة نواكشوط ، لم يخرب عمرانا ، ولا هدد أمنا ، ولا مكث في العاصمة ، ولا أطاح بنظامها ، بينما الجراد الأمريكي حين دخل العاصمة بغداد أطاح بنظامها ، وعبث بأمنها وسلامها ، وخرب البلاد وأهلك العباد ، ولا زال مستمرا إلى أجل غير مسمى من السنين أو العقود ...؟

الجراد الإفريقي يمكن أن يأكله الناس عند الحاجة ، فهو ضار ونافع أيضا . أما

---

(١) هي نواكشوط عاصمة موريتانيا .

الجراد الأمريكي فهو الذي يأكل الناس ، ولا يتوقف عن النهب والافتراس .

العجب كل العجب – بعد كل ما سبق – هو كيف تعاملت دول العالم وأممه المتحدة وغير المتحدة ، مع هذين الصنفين من الجراد !

فها هي دول العالم تتنادى ، وتتواصى ، وتتعاون ضد الجراد الإفريقي الأعزل ، ليس لمجرد طرده وإجلائه ، وإنما لأجل إبادته والقضاء عليه . وكذلك تهب المنظمات الدولية بمساعدتها ومبيداتها للإسهام في حرب المطاردة والإبادة ضد جراد جائع مضطر ، ولكن معظم دول العالم أسهمت في دعم الجراد الأمريكي وتسهيل مهمته ، أسهمت معه بجرادها – المدني أو العسكري – أو أسهمت منه بفتح حدودها ، أو مياهها ، أو أرضها / أو سمائها ، أو أسهمت معه بتأييدها ومباركتها ، أو أسهمت معه بصمتها وتغاضيها ، بما في ذلك عدد من دول الجوار والأخوة .

وكلنا نعرف – في جميع الشرائع والقوانين والأعراف – أن الجائع المضطر الذي لا يريد سوى سد الرمق ، لا عقوبة عليها في هذا المستوى . أما الذي يغزو ويحتل ، ويقتل ويدمر ، ويغضب ، وينهب ، ويفعل ذلك عدوانا وظلما وحقدا ، ولأجل مزيد من الثراء والجبروت ، وينقل الثروات المغصوبة إلى بلاده وإلى أجياله المقبلة ، فهذا يعد مجرما بعدد الدقائق التي يقضيها على هذه الحال .

ومع هذا فنحن نرى أن الجراد الإفريقي يعاقب بالمطاردة وبالإبادة والآخر يحظى بالمساعدة والإشادة . هل لأن أحدهما أسمر والآخر أصفر ؟ أم لأن أحدهما مستضعف والآخر مشرف ؟!

أنا لست متعاطفا مع الجراد الإفريقي ، ولا أدعو إلى التغاضي عنه ولا إلى فسح المجال له ، لكنّي فقط أبحث عن شيء من العدل والمساواة في هذا العالم ؟!!!

٢٢/٩/٢٠٠٤ م

في ذكرى الانتفاضة المجيدة .... الاستشهادية لا تفجر نفسها

في العدد ما قبل الماضي من جريدة « التجديد » نجد هذا العنوان « استشهادية تفجر نفسها وتقتل صهيونيين ... » وقد سبق أن رأيت وسمعت مثل هذا التعبير مرارا ، في « التجديد » وفي غيرها من وسائل الإعلام ، وهو تعبير ينطوي على خطإ جسيم وعلى إساءة بالغة للمجاهدين والشهداء في أرض فلسطين المباركة .

وإذا صرفنا النظر عن العلمليات الانتحارية العشوائية التي تستهدف بدون حق الأبرياء من المدنيين المسالمين غير المعتدين أو غير المحاربين ، والتي هي مرفوضة شرعا وعقلا ، نقول :

إن المجاهدين الاستشهاديين لا يفجرون أنفسهم حاشاهم ، وإنما يفجرون أسلحتهم التي بحوزتهم ، في أحزمتهم أو بأيديهم . وهم بذلك يقصدون قتل عدوهم ، الذي تسلط عليهم وعلى أرضهم بكل أشكال القتل والغصب والتخريب والإذلال ، فهم لا يفجرون أنفسهم ، ولا يقصدون ذلك ولا يريدونه ، وإنما يأتي موتهم واستشهادهم عرضا وتبعا ، بحكم طبيعة هذا النوع من العمليات وطبيعة السلاح المستعمل فيها .

والمجاهد في كثير من الحالات يكون بصدد عمل جهادي وهو على يقين أو على شبه يقين أنه سيلقى فيه وبسببه حتفه ، ولكنه لا يفعل أبدا شيئا ضد نفسه وبدنه وحياته ، وإنما عمله وقصده هو مقاومة عدوه ، وإصابة عدوه ، وفي سبيل ذلك قد يأتي مقتله وموته . وهذا مُضمن في قول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ [التوبة : ١١١] .

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية ذكرت الحالات التي تعرض للمجاهدين ، فهم قد يقتلون وقد يقتلون : ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ أي أن تعرضهم للقتل سابق على قتل عدوهم . وهذه القراءة (وهي قراءة حمزة والكسائي وغيرهما) تنطبق حرفيا على ما هو الغالب في العمليات الاستشهادية التي تقع اليوم .

فالمجاهد في هذه العمليات قد يقتل ويقتل في آن واحد وفي لحظة واحدة ، وقد قتل هو قبل عدوه ، فهو يقتل أولا ويقتل ثانيا ، ومع هذا لا يصح أن يقال قتل نفسه أو فجر نفسه ، وإنما مقتله وموته يقع ضمن مجرى العملية التي هي موجهة للعدو .

وفي هذه الآية إشارة أخرى ، لا بد من التقاطها والوقوف عندها ، وهي في قوله تعالى : ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ ، ومفادها أن مشروعية الجهاد والقتال دفاعا عن الإنسان وعن الأديان وعن الأوطان ، ومقاومة للبغي والعدوان والتجبر والطغيان ، هذه المشروعية ، مقررة في التوراة والإنجيل والقرآن .

كما تقرر هذه الكتب الإلهية كلها أن الله تعالى يرتضي لعباده هذا الجهاد وهذا القتال ، وأنه سبحانه يعده جهادا في سبيله ، وأنه يجازي شهداءه ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾، فمقاومة المعتدين المحتلين الغاصبين هو مقتضى التوراة والإنجيل قبل أن يكون مقتضى القرآن الكريم ، فاعتبروا يا أهل الكتب الثلاثة .

على أن هذه العمليات الاستشهادية حينما يتم اللجوء إليها في المقاومة المشروعة ورد العدوان كما يحدث في فلسطين ، وحينما ينخرط في تنفيذها فتيان وفتيات دون سن العشرين ، فإنما يدل ذلك على أن الظلم والقهر والإذلال قد يتجاوز كل الحدود ، وهي حال الشعب الفلسطيني المعذب في الداخل والمحاصر في الخارج ، اجتمع عليه أعداؤه وأشقاؤه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

٢٩/ ٩/ ٢٠٠٤ م

المرأة والرجل بين المساواة الفطرية والتسوية القسرية

جعل الله تعالى الكائنات الحية كلها زوجين اثنين : ذكرا وأنثى ، بل إن في غيرها ذكورة وأنوثة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] وجعل سبحانه الزوجية بين الذكر والأنثى سببا للتلاقح والتوالد ، ومظهرا للتكامل والتناسق ، ومنبعا للمودة والرحمة والسكينة والسعادة ، فالرجل يأنس بالمرأة ويسعد بها ، باعتبارها امرأة مختلفة عنه ، والمرأة تأنس بالرجل وتسعد به ، لأنه رجل مختلف عنها .

وبقدر ما تكون المرأة شبيهة بالرجل أو مشتبهة به بقدر ما تفقد جاذبيتها ومكانتها أمامه وامتيازها عنده ، وكذلك الرجل بقدر ما يقترب من المراة ويتأنث ويتخنث ، بقدر ما يفقد جاذبيته ومكانته وامتيازه عند المرأة .

فالمرأة تميل إلى الرجل وتحتاجه وتريده بقدر ما هو رجل مكمل لها ، وكذلك الرجل يميل إلى المرأة ويريدها ويحتاجها بقدر ما هي امرأة مكملة له .

وهذا كما ينبطق على الجوانب الحسية والجنسية ، فإنه ينطبق على الجوانب العاطفية والنفسية ، وعلى الجوانب الوظيفية الاجتماعية . هذه هي طبيعة الأشياء وهذه هي الفطرة السوية ، وهي ما اتفقت عليه الأمم والشعوب وأجمعت عليه الملل والنحل ، في كافة الأزمان والعصور ، من غابرها إلى حاضرها ، ومن شرقها إلى غربها .

الاختلافات الفطرية :

القيم السماة اليوم بالكونية – وهي قيم يتم فرضها وتغليبها وتعظيمها ؛ لأن صناعها وتجارها هم الغالبون – تريد اليوم إبطال كل الفوارق وكل التمايزات بين

الرجل والمرأة ... إنهم يريدون أن يجعلوا « اثنين في واحد » ، فكل ما تتصف به المرأة يتصف به الرجل ، وكل ما يتصف به الرجل تتصف به المرأة ، وكل ما يفعله الرجل تفعله المرأة ، وكل ما تؤديه المرأة يؤديه الرجل ، وكل ما يلزم أحدهما يلزم الآخر ، وكل ما يجوز أو لا يجوز لأحدهما ، يجوز أو لا يجوز للآخر ، حرفا بحرف ، وشكلا بشكل .

هذا من حيث المبدأ العام والشعار المرفوع ، ولكن من حيث الواقع الفعلي ، فعملية « تذكير » الإناث تجري أكثر بكثير من عملية تأنيث الذكور ، ومن هنا وجدنا بعض المستغربين والمستغربات عندنا يطالبون بحذف نون النسوة وجمع المؤنث السالم من اللغة العربية ، دون أن يطالبوا بحذف واو الجماعة أو جمع المذكر السالم ! ووجدناهم كذلك يهرولون إلى تسمية النساء بأسماء أزواجهن ، دون أن يفعلوا العكس أو يطالبوا به ، ومن أشهر الأمثلة وأقربها إلى الأذهان قولهم : سها عرفات بينما اسمها الصحيح هو سها الطويل ، غير أن هذا التشويه وهذا التحريف لطبيعة الأمور وهذا السعي الدؤوب لتذكير النساء ، وأحيانا لتأنيث الرجال ، ما زال – ولن يزال – يصطدم بعمق الفطرة ورسوخها ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [الأحزاب :٦٢] . فما زالت المرأة تحيض وتحمل وتلد ، والرجل لا يحيض ولا يحمل ولا يلد ، وما زالت المرأة ترضع والرجل لا يرضع ، وما زال الرجل يتسم بالخشونة أكثر من المرأة ، والمرأة تتسم بالليونة أكثر من الرجل ، في الوجه والصوت والبشرة والشعور ، ولا يقف هذا التمايز العميق المتجذر عند ما هو خلقي جسدي فسيولوجي ، بل يتعداه إلى السلوك الإرادي والتصرف الكسبي ، وما زالت الأعمال والوظائف المهنية ، بعضها يجتذب الرجال أكثر وبعضها يجتذب النساء أكثر ، وبعضها يقع فيه التساوي أو التقارب ، وهذا يقال أيضا في التخصصات الدراسية ، إذا كان المفروض - وقد تساوت الفرض والشروط – أن يكون التساوي

والتقارب الشديد في جميع المجالات والتخصصات . ولكننا نجد المرأة – بعدما أتيحت لها كل الفرص والإمكانات – قد اكتسحت بعض المجالات المهنية وتفوقت فيها عددا وأداء ، بينما لم تلج مجالات أخرى إلا بنسب قليلة وأحيانا ضئيلة أو شبه منعدمة . وعلى العموم نجد المراة راغبة ومرغوبة وناجحة في المجالات التي تتسم بالرقة والليونة والروتينية وتعتمد على حسن الخلق ولطف المعاملة ... ونجدها بنسبة قليلة – تزيد وتنقص – في المجالات التي تسودها الغلظة والشدة والخشونة والصراع والظروف المخوفة .

قبل سنوات حضرت بالمغرب – ضمن الجمهور – ندوة في موضوع « المرأة . والمشاركة السياسية » ، وسمعت جميع المتحدثات في الندوة - وكن إسلاميات وعلمانيات – ينتقدن « تغييب » المرأة عن المناصب السياسية وعن مواقع القرار السياسي ، ويطالبن بوضع حد لهذا الحيف وهذا التهميش ، وطالب بعضهن باعتماد نظام المحاصصة بين النساء والرجال في المناصب السياسية ، كالحكومة والبرلمان وقيادات الأحزاب ، والوظائف العليا في مختلف الإدارات ...

وتدخلت بتقديم استدراك بسيط فقلت : لماذا لا تطالبن أيضا بالحصص المماثلة والحضور المماثل في المناصب العسكرية ؟ فهناك ضباط ومناصب سامية في الجيش والدرك والشرطة ؟ فلماذا لا تنتقدن تغييب المرأة في هذا المجال أيضا ؟

وأنا أعرف – بحكم الواقع قبل حكم الشارع – أن النساء أقل استعدادا وأقل تلاؤما حتى مع المناصب السياسية والمناصب القيادية عامة ، وهن أقل ميلا وأهلية من ذلك للمناصب والمهام العسكرية والأمنية .

وها نحن نرى الولايات المتحدة على سبيل المثال قد قامت منذ أول يوم على الديمقراطية والحرية والمساواة ، ولم تصل فيها المرأة لا إلى منصب الرئيس ولا إلى منصب نائب الرئيس ، ولا إلى مجرد مرشحة لأي من المنصبين .

وحتى لو وصلت في المرة القادمة فسيكون ذلك حدثا استثنائيا لا يتجاوز نسبة ١ ٪ في التاريخ الأمريكي أو لا يصل إليها ، وقل مثل هذا عن مارغريت تاتشر وأنديرا غاندي حديثا ، وعن زنوبيا وبلقيس قديما .

ومن المجالات التي يتجلى فيها التمايز الطبيعي بين النساء والرجال ، المجال الرياضي ، وهو مجال غير متهم لا بالتزمت ولا بالتطرف ولا بالأصولية ، ولا بممارسة السادية ولا بمعاداة السامية ...

في هذا المجال نجد رياضات تكاد تكون حكرا على الرجال ، أو على تفوق الرجال ، ونجد رياضات أخرى – هينة لينة أو استعراضية – يكثر فيها النساء .

ولعل المجال الرياضي هو المجال الوحيد الذي يظل إلى الآن مستعصيا على الاختلاط . أعني ليس فيه فرق رياضية مختلطة ، وليس فيه سباقات ومنافسات مختلطة . ومع ذلك لا أحد يستنكر ولا أحد يتهم ، ولا أحد يطالب ، لا التقدميون والحداثيون ، ولا النسوانيات والنسوانيون ، ولامنظمات حقوق الإنسان ، ولا دعاة التربية على التفتح والمساواة ..!

من هذا القبيل أيضا ألفت النظر إلى عدد آخر من مظاهر التمايز الذي يرجع إلى فوارق فطرية بين الرجل والمرأة

لماذا الحروب والعنف والجريمة المعتمدة على العنف ، بما في ذلك جريمة الاغتصاب ، كلها تعتبر تخصصات رجالية ، ولا نجد فيها النساء إلا في أدوار ثانوية أو بنسبة ضئيلة ؟

لماذا عالم الأزياء والزينة والموضة هو عالم نسائي بدرجة كاسحة ، ليس فيها مساواة ولا ما يشبه المساواة ؟!

لماذا تنتشر في العالم كله – إلا من رحم ربك – مسابقات « ملكة الجمال » ولا

نجد بلد واحدا ينظم مسابقة « ملك الجمال » ؟!

هناك قضايا حساسة اليوم يمارس فيها تضليل كثيف قد يصل إلى حد الإرهاب والتخويف ، من أجل إسكات العلماء والمفكرين ومنعهم من حرية التفكير والتعبير فيها . ومن هذه القضايا قضية اليهود ، ومنها قضية التسوية التامة بين الرجل والمرأة .

ومنذ أسابيع قليلة فقط تداولت وسائل الإعلام خبر المسؤول الجامعي الأمريكي الذي ذهب إلى القول بتفوق الذكور على الإناث في الرياضيات . لكنه سرعان ما أرغم على التراجع والاعتذار ، فالمسالة مسألة مناصب ومكاسب قلما يستطيع أحد التضحية بها .

المساواة بين الأصل والاستثناء

الإنصاف لأي واحد من الناس يكون بإعطائه كل ما يستحقه ، مع الاحترام والتكريم الذي منحه الله بني آدم جميعا : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

ومن الإنصاف التسوية فيما تساوت أسبابه ومقدماته وشروطه . ومن الإنصاف أيضا عدم التسوية وعدم المطابقة بين الأشياء المختلفة ، وذلك على قدر اختلافها وتمايزها .

وإذا ثبت أن المرأة والرجل متطابقان في خلقتهما وخصائصهما ومؤهلاتهما بالتمام والكمال ، فيلزم حينئذ التسوية بينهما بالتمام والكمال . وإذا ثبت أنهما متطابقان بدرجة كبيرة جدا ، ولكنهما يختلفان بنسبة محدودة جدا ، فمن العدل ومن الإنصاف ومن الصلاح أن يسوى بينهما بنفس الدرجة وبنفس النسبة ، بلا زيادة ولا نقصان . والذي لا شك فيه أن التطابق والتماثل بين الرجل والمرأة كبير جدا ، وهو الأصل فيهما وفي أحكامهما ، فهما جميعا جنس واحد وأصل واحد « **كلكم لآدم وآدم من تراب** » وهم جميعا (ذرية بعضها من بعض) .

يقول العلامة محمد الطاهر بن عاشور : إن « الإسلام دين الفطرة ، فكل ما شهدت الفطرة بالتسوي فيه بين المسلمين فالتشريع يفرض فيه التساوي بينهم وكل ما شهدت الفطرة بتفاوت البشرية فيه ، فالتشريع بمعزل عن فرض أحكام متساوية فيه » . ثم يقول : « فالمساواة في التشريع أصل لا يختلف إلا عند وجود مانع ، فلا يحتاج إثبات التساوي في التشريع بين الأفراد أو الأصناف إلى البحث عن موجب المساواة ، بل يكتفى بعدم وجود مانع من اعتبار التساوي » . وإذا كان المسلمون وغير المسلمين قد بالغوا ـ عبر العصور ـ في توسيع دائرة التفريق والتمييز وعدم التسوية بين الرجل والمرأة ، على غير أساس من الدين أو الفطرة ، فليس من الإنصاف ولا من الإصلاح الذهاب إلى الطرف المضاد ، وفرض التسوية الإجبارية المطلقة ضد الفطرة البشرية ، وضد مصلحة الحياة البشرية ، بل ضد مصلحة المراة ذاتها وضد كرامتها وسعادتها .

تكريم المرأة في الإسلام :

إذا كان الله تعالى قد كرم بني آدم عامة بوجوه شتى من التكريم والتفضيل ، فإن شريعة الله سبحانه قد خصت المراة بوجوه إضافية خاصة من هذا التكريم ، سواء بوصفها امرأة ، أو بوصفها أماً أو بنتا أو زوجة ...

فأما تكريم المرأة بنتا أو أختا ، فمثل ما في قوله ﷺ : « **من كان له ثلاث بنات أو ثلاث أخوات ، أو بنتان أو أختان ، فأحسن صحبتهن ، وصبر عليهن ، واتقى الله فيهن ، دخل الجنة** » وفي حديث آخر : « **من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين ... وضم أصابعه** » .

وفي مثل هذه الأحاديث والتوجيهات ما يدعو ويحفز على مزيد من العناية والرعاية للإناث غير ما هو مطلوب لجميع الأبناء ، ذكورا وإناثا .

وأما تكريم المرأة أما ، فحسبنا وحسبها فيه ما جاء في الرواية المشهورة : « **الجنة**

تحت أقدام الأمهات » ، وجاء في حديث آخر حين سئل رسول الله ﷺ : من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ فأجاب : « **أمك ، ثم أمك ، ثم أمك ، ثم أبوك** » .

وأما تكريم المرأة مطلقا فله مظاهر متعددة ، أذكر منها إعفاءها من القتال الواجب والشرعي الذي يدعى إليه الرجال ، إلا إذا تطوعت أو كانت هناك حالة ضرورة قصوى . ومعلوم ما في الحروب من مخاطر ومواقف حرجة أو مهينة أو مشينة يتعرض لها المقاتلون ، وفي هذا المجال أيضا نهى النبي ﷺ عن قتل نساء العدو في حالة الحرب .

ومن تكريم الإسلام للمرأة مطلقا أنه نهاها عن التبرج ، وعن كل المظاهر والتصرفات التي تجعل منها مجرد عنصر إثارة وفتنة ، ومجرد وسيلة وأداة للغرائز والنزوات البهيمية الهابطة . وهذا ما أصبحت نساء عصرنا رمزا له وعنوانا عليه وبضاعة له .

فمن أراد جلب الزبناء إلى متجره أو تزيين مكتبه أتى بالمتبرجات ، ومن أراد ترويج سلعته أتى بالمتبرجات ، ومن أراد إنجاح تلفزيونه أو برنامجه أتى بالمتبرجات ، ومن أراد تنشيط حفلته وتمتيع ضيوفه أتى بالمتبرجات .

لقد أصبح التبرج والعري بضاعة نسائية محتكرة ، وهذه هي المأساة الأولى لنساء العصر المتبرجات العاريات . وأما المأساة الثانية – وليست الأخيرة – فهي أن هذه البضاعة أصبح العرض فيها يفوق الطلب بكثير وبشكل متزايد ، وهذا الوضع ليس له من عنوان سوى الكساد والبوار والابتذال والخسار ، وانهيار الأسعار .

وأما تكريم المرأة زوجة – وهي الحالة التي تثير لغطا كثيرا – فأبرز مظاهره إسناد القوامة بمعناها الشرعي الإيجابي إلى الرجل لفائدة المرأة ، فالقوامة في النظر الإسلامي إنما هي خدمة ورعاية ومسؤولية مادية ومعنوية يتحملها الرجل لفائدة

زوجته ، فهو بمقتضى هذه القوامة يتحمل متاعب وأعباء ومسؤوليات إضافية تعفى منها المرأة ، أو تتحمل منها ما تشاء ، أو ما يكون تكميليا وليس أساسيا .

وروت السيدة عائشة رضي الله عنها – وغيرها – أن رسول الله ﷺ قال : « **خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي** » ، وهذا الحديث النبوي الشريف هو أحد المعالم الإسلامية المضيئة في موضوع علاقة الرجل بالمرأة عموما ، وعلاقة الزوجين خصوصا .

وأول ما ينبغي أن نلتفت إليه في هذا الحديث هو تسمية الزوجة باسم « الأهل » ، فالمعروف في الأصل اللغوي أن الأهل هم العشيرة الأقربون . ولكن الأحاديث النبوية جاءت بإطلاق لفظ الأهل على الزوجة خاصة وتحديدا ، وفي هذا ما لا يخفى من الإيحاء النفسي العاطفي ، ومن التوجيه السلوكي ، فالأهل هم أهل للمحبة والمودة ، وأهل للعطف والحنان ، وأهل للرعاية والحماية ...

فليست علاقة الرجل بزوجته علاقة مشاكسة وتدافع ، كل منهما يدافع عن حقوقه ويخاصم لأجل انتزاع مصلحته من صاحبه . بل العلاقة التي جاء بها الإسلام هي أن كلا منهما يكمل صاحبه ويخدم صاحبه ويندمج في صاحبه ، كما جاء في الآية الكريمة : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة : ١٧٨] .

غير أن الإسلام في هذا الباب قد حمل الرجل قسطا إضافيا من الخدمة والرعاية ، وهو القسط المعبر عنه بالقوامة التي هي درجة من المسؤولية أنيطت بالرجل تجاه أهله . قال تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ [النساء : ٣٤] .

هذه القوامة إذا وضعت في سياق كافة النصوص الحاكمة والموجهة لعلاقة الرجل بزوجته ، ونظر إليها في ضوء السنة والسيرة النبوية المطهرة ، ظهر أنها قوامة

خدمة ورعاية ومسؤولية ، بالإضافة إلى كونها قوامة تراض وتشاور وتفاهم ، فهي ليست سلطة تحكم وتعسف وقهر كما يصورها دعاة النزعة الأنثوية (feminism) ، وكما قد يحصل فعلا من بعض الأزواج الذين لا أخلاق لهم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما « تلك الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة والتوسع للنساء في المال والخلق » ، وقال ابن عطية : « وهو قول حسن بارع » ، وتلافيا لما قد يقع من فهم معوج وتطبيق خاطئ للقوامة ، جاءت السنة القولية والعملية لرسول الله ﷺ توجه وتسدد وتهدي إلى سواء السبيل ، ومنها الحديث السابق : « **خيركم خيركم لأهله** » الذي قال عنه الإمام الشوكاني « في ذلك تنبيه على أن أعلى الناس رتبة في الخير وأحقهم بالاتصاف به هو من كان خير الناس لأهله ، فإن الأهل هم الأحقاء بالبْشر وحسن الخلق والإحسان وجلب النفع ودفع الضرر ، فإذا كان الرجل كذلك فهو خير الناس ، وإن كان على العكس من ذلك فهو في الجانب الآخر من الشر .

وكثيرا ما يقع الناس في هذه الورطة ، فيرى الرجل إذا لقي أهله كان أسوأ الناس أخلاقا وأشحهم نفسا وأقلهم خيرا ، وإذا لقي غير الأهل من الأجانب لانت عريكته وانبسطت أخلاقه وجادت نفسه وكثر خيره ، ولا شك أن من كان كذلك فهو محروم التوفيق زائغ عن سواء الطريق ، نسأل الله السلامة » .

الخلاصة :

هذه ليست دعوة إلى عدم المساواة ، بل دعوة إلى المساواة الطبيعية التي ليس فيها تكلف ولا تعسف . وليست دعوة لحصر تكريم المرأة فيما ذكرته من رعاية وصيانة ، بل تكريمها – إضافة إلى ذلك – بكل ما تستحقه وتصلح له وتتناسب معه ، أيضا دون ضغط ولا إكراه ولا إفساد لطبيعة المرأة وخصوصياتها .

نشر في موقع « الجزيرة نت » ثم في « التجديد »

١٨/ ٤/ ٢٠٠٥ م

الأمريكيون بين حماية البطة وقتل الشعوب

يروى عن الإمام مالك ﷺ أن بعض أهل العراق جاؤوا يسألونه : هل يجوز قتل البراغيث في الحرم ؟ فنظر إليهم متعجبا ، وقال : تقتلون الحسين وتسألون عن قتل البراغيث ؟!

قد لا يكون لهؤلاء السائلين علاقة بقتل الإمام الحسين بن علي ﷺ ، الذي قتل في العراق شر قتلة ، ولكن الإمام مالكا أراد أن يرسل معهم رسالة إلى أهل العراق ، وإلى كل من يعنيهم الأمر ، وأن يلفت نظر السائلين أنفسهم إلى أن الأولى بهم أن يسألوا عن الجريمة العظمى التي ارتكبت بأرضهم بدل السؤال – الذي هو أقرب إلى الهزل والسخرية – عن حكم قتل البراغيث في منطقة الحرم المكي أو المدني .

تذكرت هذه الحكاية الغنية بالدلالات ، حين سمعت وقرأت مرارا عن البطة السعيدة التي اتخذت لها عشا بجانب البيت الأبيض ووزارة الخزينة بالعاصمة الأمريكية واشنطن ، وقد تحدثت وسائل الإعلام كثيرا عما أولاه المسؤولون الأمريكيون لهذه البطة من رعاية وحماية وعطف ومساعدة ، ومن حرصهم الشديد على ألا يصيبها أحد بأي أذى أو إزعاج . وقد تابعت وسائل الإعلام الأمريكية هذه العناية بعناية مماثلة ، إلى أن عرفنا أخيرا أن البطة قد فقست بيضها ، وبدأت في رعاية فراخها ، وتابعتها في أول رحلة سباحة لها بعد فترة نفاسها ...!!

لا بد أن يصيبني ، ويصيب غيري ، من العجب والدهشة أشد مما أصاب الإمام مالكا رحمه الله ، كيف أن الأمريكيين – وهم القتلة الأوائل في هذا الزمان – يثيرون زوبعة إعلامية حول رفقهم وإنسانيتهم وحمايتهم المتحضرة للبطة السعيدة ؟

فالأمريكيون هم أكبر ملوث للكرة الأرضية وما حولها ، ومع ذلك يرفضون التوقيع على معاهدة « كيوطو » لحماية البيئة ، ولا يفكرون حين يبتزون الشعوب

ويجمعون منها ملايين الدولارات كل يوم ، في أن يساهموا في حماية البيئة وإصلاح بعض ما أفسدوه منها ملايين الدولارات كل يوم ، في أن يساهموا في حماية البيئة وإصلاح بعض ما أفسدوه منها ، مع أن فساد البيئة يهدد البشرية كلها ، والكائنات الحية كلها ....

الأمريكيون خاضوا في العراق حربا طاحنة للعباد والبلاد ، وضحاياها من قتلى وجرحى ومعتقلين هم – بدون شك – بمئات الآلاف ، أمريكا تحصي قتلاها وترفض أي إحصاء للقتلى المدنيين هناك ، مع أن جميع القتلى والضحايا هناك إنها هم ضحايا حربها وبسبب حربها ، سواء كانوا أمريكيين ، أو عراقيين ، أو غيرهم ، فأيا كان القاتل والمقتول وسبب القتل فأمريكا مسؤولة عن قتلهم جميعا .

أمريكا – منذ نصف قرن – تدعم القتل الصهيوني في فلسطين وفي غير فلسطين ، فهي السند الأول لكل قتل وعدوان صهيوني .

أمريكا مارست القتل العدواني أو دعمته في اليابان ، وفي لبنان ، والصومال ، والفليبين ، وأفغانستان .

أمريكا التي قتل جنودها أكبر عدد من القتلى الصحفيين في العراق ، ترفض حتى مجرد التحقيق في قتلهم ، مع أن التحقيق طلب منها هي نفسها لا من غيرها .

أمريكا هذه تقيم عرسا دعائيا ، لأن مسؤوليها وفروا للبطة كل أسباب الأمن والرعاية والسلامة ، وطلبوا من العالم أن يكون شاهد زور وتزوير على منتهى الإنسانية والرعاية لحقوق الإنسان والحيوان والطيور والبراغيث .

أليس هذا يشفع للزعماء الأمريكيين إذا قتلوا بضع مئات من الآلاف من البشر هنا وهناك ؟!

٤ مايو ٢٠٠٥ م

*****

حركة التنصير بالمغرب ..
أهداف باطلة وأهداف باطنة (*)

لم يعد خافيا وجود حركة تنصيرية نشطة بالمغرب، يقوم بها « المبشرون » الإنجيليون، الأمريكيون بصفة خاصة. لم يعد خفيا ولا متخفيا، لأن سياسة هؤلاء الدعاة الأمريكيين الجدد، هي نفسها ترمي إلى الخروج من طور الخفاء والتكتم إلى طور العلانية والتطبيع والترسيم، وما المدرسة الكبيرة التي فتحوها بالدار البيضاء إلا عنوان من عناوين هذه المرحلة.

لقد أصبح لزاما على المغاربة عموما – وعلى العلماء والدعاة خصوصا – مواجهة هذه الحركة والعمل على تحصين مجتمعنا وشبابنا من إغراءاتها واختراقاتها، وفتح الحوار المباشر مع دعاتها وضحاياها على حد سواء. وهذا يقتضي قبل كل شيء فحص الأطروحات والأهداف التي ترمي إليها هذه الحركة وهذه الأنشطة، ما ظهر منها وما بطن.

وأول ما يجب تسجيله عن الحركة التبشرية البروتستانتية الإنجيلية، هو تلاحمها التام مع الحركة الصهيونية العالمية، إلى درجة أنها أصبحت تسمى عند كثير من الدارسين الغربيين بالصهيونية المسيحية.

ما أريد التطرق إليه في هذه الكلمة، هو تقديم أهدافها المعلنة وغير المعلنة.

(*) كتب بعد تسلل حوالي ٨٠٠ مبشر أمريكي إلى المغرب، ومحاولة تنظيم حفل غنائي مسيحي بمراكش وتنظيم محاضرات وأنشطة تنصيرية دعائية، لكن الصخب الإعلامي والسياسي المصاحب دفع المنظمين إلى التخلي عن المحاضرات والندوات، والاكتفاء ببعض المواد الغنائية.

- فأما أهدافها المعلنة ، فهي أهداف باطلة ساقطة ، لا معنى لها في المغرب وفي أي بلد مسلم ، ومع أي شخص مسلم .

١- فهي تدعو إلى الإيمان بعيسى ابن مريم ونبوته ومقامه عليه الصلاة والسلام ، وهذا أمر مسلم عند المسلمين . فالنصارى واليهود ، وغير المسلمين عموما ، هم من يحتاجون إلى ذلك ، أما المسلمون ، فإن الإيمان بعيسى ونبوته ومقامه ، يعد من أوليات الإسلام والإيمان عند كل مسلم .

٢- وهي تدعو إلى الإيمان بالتوراة والإنجيل ، والمسلمون كذلك في غنى عن هذا ، لأن أول شيء في الإسلام هو الإيمان « بالله وكتبه ورسله » ، وفي مقدمة كتبه القرآن والتوراة والإنجيل ، وإذا كان الثبوت التفصيلي لنصوص التوراة والإنجيل هو محل شك ونظر - أو طعن ورفض أحيانا - فإن هذا الأمر نفسه موجود عند اليهود والنصارى أنفسهم .

وفي الجانب الآخر ، فإن قضايا دينية أساسية كثيرة ، توجد في الكتب الثلاثة ، فنحن نؤمن بها ونتمسك بها دونما حاجة إلى مبشرين ولا إلى منصرين ولا إنجيليين ولا توراتيين .

٣- وبناء عليه ، فإن ما قد يدعونا إليه هؤلاء الإنجيليون من معتقدات صحيحة ، أو أخلاق وفضائل حميدة ، وأحكام رشيدة ، هي موجودة عندنا في الإسلام على أكمل وجه وبأصح سند .

٤- وإذا كان المنصرون الإنجيليون يقاومون النزعات والموجات الإلحادية المادية اللادينية ، فأحسن لهم أن يوفروا جهودهم لبلدانهم ولأهل ملتهم . وحتى إذا أرادوا أن يفعلوا ذلك في أوساط المسلمين ، فأقرب طريق هو حث المسلمين على التمسك بدينهم ، لأن الإسلام يمثل اليوم أقوى مقاومة للإباحية واللادينية والإلحاد والمادية ، أما المسيحية فقد انهارت أمام هذه الموجات منذ مدة طويلة .

فإذا صح أن هذه هي أهداف الحركة التنصيرية بالمغرب ، فإنها كلها أهداف لا معنى لها ، ولا جدوى منها ، في مجتمع مسلم ، بل هي عبارة عن جملة اعتراضية لا محل لها من الإعراب !

بقيت الأهداف الباطنة ، غير المعلنة ، ويمكن تلخيصها فيما يلي :

١- التلاحم بين الحركة الإنجيلية والحركة الصهيونية ، يجعل حركة التبشير الإنجيلية تشتغل - بشكل مباشر وغير مباشر - في خدمة الصهيونية والتطبيع والاختراق « الإسرائيلي » . فجميع المكاسب والإنجازات ، تصب هنا .

٢- الدولة الأمريكية ، التي تتحول أكثر فأكثر إلى دولة مسيحية صهيونية توراتية متطرفة ، هي أيضا تستفيد من الدور الطلائعي التمهيدي الذي تؤديه الحركة التبشرية ، وخاصة على صعيد الشعوب والمجتمعات .

٣- وتبعا للهدف السابق ، تسعى الدولة الأمريكية ، إلى إيجاد أقليات (جزر) في البلدان الإسلامية التي تتمتع بوحدة دينية منيعة ، مثل المغرب ، فإذا « ظهرت » في المغرب « طائفية مسيحية » فستصبح موجبا للتدخلات والإملاءات ، ومحلا للعناية والرعاية و « الحماية » ، وسيصبح « المغاربة المسيحيون » ، بمثابة جالية أمريكية ... والبقية معروفة لا سمح الله .

٤- هناك من « المبشرين » من لايهمهم دخول المسلمين في المسيحية بقدر ما يهمهم خروجهم من الإسلام ، وليسوا حريصين على إيمان المسلمين بعيسى المخلص بقدر حرصهم على أن يكفر المسلمون بمحمد ﷺ ، ولا يهمهم الالتزام بالإنجيل بقدر ما يهمهم عدم الالتزام بالقرآن .

الأربعاء ١١ من ماي ٢٠٠٥ م

البحث عن متغيبين : أينكم يا علماء المغرب؟! (*)

كل الناس يبحثون عن أقاربهم وأحبائهم إذا غابوا وطال غيابهم ، دون معرفة مصيرهم ومكان غيابهم . ويشتد البحث عن المتغيبين والمختفين بقدر ما يكون لهم عندنا من مكانة ومحبة وشوق إلى رؤيتهم والاطمئنان إلى سلامتهم ومكانتهم .

وأنا – منذ مدة طويلة – أتساءل عن غياب علمائنا وهيئاتهم ، وأعاني في ذلك ألما وحسرة وقلقا ، لأني على يقين أن المغرب بدون علمائه ، وبدون حضورهم الدائم والفعال ، لن يكون هو المغرب الذي عرفناه ، وعرفنا هويته وتاريخه وأمجاده ...

مرت بمغربنا وبأمتنا أحداث ومناسبات وتطورات ، وعرف مجتمعنا نقاشات حامية ومعارك مصيرية ، تتعلق بدينه وبوحدته وباستقراره ومستقبله ... ، وكان الناس يتساءلون مرة بعد أخرى : أين علماء المغرب ؟ ما كلمتهم ؟ وما موقفهم ؟

حينما وقعت بالمغرب جريمة ١٦من ماي ٢٠٠٣ ، تعاقب على وسائل إعلامنا – الرسمية وغير الرسمية – صحفيون ، وسياسيون، وحزبيون ، وفنانون ، ومحللون ، فقدموا إداناتهم وشتائمهم ، وتحليلاتهم للماضي والحاضر والمستقبل ، وقدموا وصفاتهم العلاجية والوقائية والاحتياطية .... قاموا بواجبهم وأكثر من واجبهم . وكنت طيلة تلك المعمعة أتساءل : أين علماء المغرب ؟ أين هيئات العلماء ؟!

بعد أيام من تاريخ الجريمة ، وجدت تلفزتنا تعرض موقفا لأحد العلماء ، وكان

(*) في الجلسة البرلمانية التي تلت هذا المقال ، حضر وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الدكتور أحمد التوفيق ليجيب عن أسئلة السادة النواب حول بعض شؤون الوزارة ، وقد وجدها السيد الوزير فرصة ليعقب على مقال الدكتور أحمد الريسوني بالقول : إن العلماء المغاربة موجودون ، وإنهم يؤدون مهمتهم في كل ربوع المملكة .

هو شيخ الأزهر ! قلت في نفسي ولمن حولي : هل المغرب ليس له أزهر ؟ وليس له شيخ أزهر ؟ أليست « القرويين » ندا للأزهر ، وعلماؤها هم أزهريو المغرب ؟ وكثير من علماء القرويين ذهبوا إلى الأزهر طلبا لمزيد من العلم ، فنصبهم الأزهر أساتذة وشيوخا للأزهريين .

توالت على المغرب أحداث وتطورات جسام في السنوات الأخيرة :

- صحف وصحفيون ولا دينيون ، يهاجمون الإمام البخاري وصحيحه ، ويهاجمون الإمام مالكا ومذهبه ، بل يهاجمون الشريعة الإسلامية ، وقرآنها ونبيها ﷺ .

- ظهور دعوات صريحة وملحاحة لفصل الدين عن الدولة ، واعتماد علمانية الدولة ، وحصر إمارة المؤمنين في تدبير غير ملزم لشؤون الوعظ والإرشاد .

- حملات استئصالية ضد التعليم الإسلامي ، وضد التربية الإسلامية ، وضد المساجد وخطبائها ووعاظها .... ، وضد بعض العلماء الذين كسروا الصمت .

- تفشي التنصير في مختلف أنحاء المغرب ، حتى أصبح ضحاياه يقدرون بعشرات الآلاف ، وبدأ أهله ينظمون المهرجانات ويستعملون مؤسسات مغربية رسمية .

- تصاعد المحاولات الصهيونية المحمومة لهدم ما تبقى من القدس الشريف .

- تمزيف المصاحف وإلقاؤها في المراحيض من طرف الأمريكيين في معتقل غوانتانامو .

هل كل هذه الحداث والأهوال - ومثلها كثير - لم تجعل علماءنا يخرجون ويظهرون وينتفضون ؟!

هل رضي علماؤنا أن « يتخذ الناس رؤوسا جهالا ، يفتون بغير علم فيضلون ويضلون » كما جاء في الحديث ؟

- أين « رابطة علماء المغرب » ؟

أين « جمعية العلماء خريجي دار الحديث الحسنية » ؟

- أين « جمعية علماء سوس » ؟

- أين « جمعية خريجي كلية الشريعة » ؟

- أين « جمعية قدماء خريجي القرويين » ؟

- أين « جمعية خريجي الدراسات الإسلامية العليا » ؟

- أين « المجلس العلمي الأعلى » و « الهيئة العلمية المكلفة بالإفتاء » التابعة له ؟

- أين خلفاء محمد بن العربي العلوي ، وعبد الله كنون ، وعلال الفاسي ، والمختار السوسي ، ومحمد الحجوي ، وشعيب الدكالي ، وحسن الزهراوي ، والرحالي الفاروقي ، وآل الصديق ، وأضرابهم ؟؟

أين خلفاؤهم وورثتهم وتلاميذهم ؟ هل دخل علماؤنا - قبل غيرهم - في زمن « المغادرة الطوعية للعمل » ؟ [1] أليسوا يحفظون جيدا كلمة الحسن الثاني رحمه الله حين قال لهم : « العلماء لا يتقاعدون » ؟ أم أن معنى هذه الكلمة الرائعة محصور في مجال الوطنية العمومية ؟

يا علماءنا الأجلاء : إن هناك من يغيظهم وجودكم وأداؤكم لرسالتكم ، ويعملون ليل نهار لتغييبكم وإبعادكم ، فلا تساعدوهم بذلك ولا تساعدوهم عليه .

١٩/ ٥/ ٢٠٠٥ م

(١) المغادرة الطوعية اقتراح قدمته الحكومة للموظفين الذين تجاوزوا ٢١ عاما من العمل ويرغبون في إنهاء عملهم بالإدارة المغربية مقابل تشجيعات مالية معتبرة . والكاتب يستعير العبارة التي كانت متداولة عند كتابة هذا التعليق

التربية الإسلامية في مهب الريح (*)

السياسة التعليمية بالمغرب بتقلباتها واضطرابها ومزاجيتها، وهي ليست حقلا للتجارب فحسب، بل هي لا تكاد تترك لأي تجربة فرصة لكي تستوفي مدتها وتظهر نتائجها. فلكل وزير تجربته أو تجاربه، ولكل حزب حسابه وحساباته، وللمدراء والرؤساء توجهاتهم وملفاتهم، إضافة إلى اللجان الخاصة، الظاهرة والخفية، دون أن ننسى الأيادي الأجنبية التي يتعامل معها المسؤولون على قاعدة «اليد العليا خير من اليد السفلى».

لقد أصبح الاضطراب والارتباك، والاستعجال والارتجال، والإصلاح وإصلاح الإصلاح، ووقف الإصلاح السابق لفائدة الإصلاح اللاحق، مع أزمات مزمنة، كضعف المردودية والتدني المستمر، أصبحت هذه العناصر من أبرز الثوابت في الوضعية التعليمية بالمغرب.

استحضرت هذه الصورة العامة بمناسبة الطبخة الجديدة لوزارة التربية الوطنية، حول تغيير الحصص الزمنية للمواد الدراسية بأسلاك الباكلوريا، والتي كان من أبرز نتائجها حذف مادة التربية الإسلامية من بعض الأسلاك وتقليصها في أسلاك أخرى.

(*) كتب عندما طفت بعض العلامات الدالة على توجه وزارة التربية الوطنية لحذف مادة التربية الإسلامية من بعض الشعب أو تقليصها، وكانت الشقيقة الجزائر قد أقرت في تلك الأيام على يد الرئيس عبد العزيز بوتفليقة حذف التخصص الشرعي من التعليم الثانوي، مما يدل على أن الأمر مبيت على الصعيد العربي والإسلامي، وهذا على الرغم من ضعف المادة من ناحية المكانة والمعامل ومن الناحية البيداغوجية الصرفة.

لقد عرفت السنوات الأخيرة ، وحدها ، عدة محاولات انقلابية ضد مادة التربية الإسلامية ، وأحيانا ضد اللغة العربية ، أو شعبة الدراسات الإسلامية ، أو التعليم الأصيل ، بغرض الحذف ، أو التقليص ، أو الحذف من الامتحان ، أو تخفيض المعاملات ، أو تقليص المناصب والمنافذ ...

صحيح أن معظم هذه المحاولات ينتهي إلى الفشل ، ولكن السؤال يبقى قائما وحائرا : لماذا هذه المحاولات المتكررة والمستميتة في هذا الاتجاه ؟ لماذا توضع التربية الإسلامية وأخواتها دائما في مهب الرياح ؟

- إذا تحركت أمريكا ، فالتربية الإسلامية مستهدفة .

- إذا تحرك الوزراء و « الخبراء » ، فالتربية الإسلامية مستهدفة .

- إذا وقعت جريمة ١٦ من ماي ، فالتربية الإسلامية مستهدفة

- وإذا حلت بنا ذكراها الأولى والثانية ، فالتربية الإسلامية مستهدفة .

- وإذا وجد المخططون – في الوزارة أو خارجها – فرصة سائحة أو مفتعلة ، فالتربية الإسلامية مستهدفة .

وهكذا ، كلما هبت ريح من هنا أو هناك ، توضع التربية الإسلامية وأخواتها في مهب الريح !؟

في الأيام الأخيرة ، عمد خبراء الوزارة ومخططوها إلى زيادة حصص بعض المواد ، مع تحديد سقف زمني إجمالي أقصى للحصص ، ثم قالوا : تعالوا نحل المشكلة ، علينا أن نحذف ونخفض حصص بعض المواد ، لتكون التربية الإسلامية أولى الضحايا .

والعجيب في الأمر ، أن التقسيم الحالي للحصص لم يتم اعتماده إلا قبل سنتين وثلاث ، وبعد جهود طويلة مضنية على مدى عدة سنوات ، انتهت إلى وضع

« كتاب أبيض » [١] ، وكان ذلك على يد مسؤولين وخبراء تقدميين حداثيين ، ثم فجأة يكتشف هؤلاء الخبراء المختصون المحترفون أن هناك ثغرات تقتضي إعادة القسمة بالحذف والتقليص ..؟!

والعجيب كذلك في هذه الطبخة المستعجلة ، هو أن مشروع حذف التربية الإسلامية ، كان من نصيب الأقسام العملية ، والتقليص كان من نصيب الأقسام الأدبية ، مع أن حاجة التلاميذ العلميين إلى المادة هي أشد من حاجة زملائهم الأدبيين ، لأن الأدبيين تبقى لهم صلات متعددة بالثقافة الإسلامية من خلال مواد أخرى ، أما العلميون ، فتنقطع صلاتهم الدراسية ، مع الثقافة الإسلامية والعربية ، ولا يبقى لهم إلا تلك الحصة الهزيلة التي سيتم الإجهاز عليها لا قدر الله .

فالتربية الإسلامية لا تعطى للتلاميذ باعتبارها جزءا من تخصصهم الدراسي الأدبي ، بل هي من المواد المكونة للشخصية المغربية ، وهي من الضرورات الإنسانية الحيوية ، وهي من مقومات التنمية البشرية المتوازنة والرشيدة ، فبأي حق وبأي منطق تعطى لبعض التلاميذ ويحرم منها آخرون هم أحوج إليها ؟[٢]

بقي أن أشير أخيرا – في هذه العجالة – إلى ثغرة كبيرة في نظامنا التعليمي ، وهي غياب المؤسسة التي يفترض أن تبث في هذه القضية وفي غيرها من القضايا والثوابت الإستراتيجية للتربية والتعليم ، وأعني بها « المجلس الأعلى للتعليم »

---

(١) كتاب أنجزته وزارة التربية الوطنية على عهد الوزير السابق عبد الله ساعف على مدى زمني متوسط وبمشاركة عريضة من الخبراء والمعنيين بمن فيهم جمعيات آباء وأولياء التلاميذ ، وخصصت فيه للتربية الإسلامية مكانة لا بأس بها .

(٢) أكد وزير التربية الوطنية الحبيب المالكي في البرلمان وخارجه أن مادة التربية الإسلامية لن تمس بالحذف ولا بالتقليص . جاء ذلك بعد تصاعد الانتقادات والاعتراضات على المشروع الوزاري .

المنصوص عليه في الدستور ، ولكنه لم يتجاوز قط أوراق الدستور؟![1]

الأربعاء ٢٤ من ماي ٢٠٠٥م

*****

(١) في الخطاب الملكي لعيد العرش صيف ٢٠٠٥ أعلن جلالة الملك عن تأسيس المجلس الأعلى للتعليم .

انتفاضة القرآن على همجية الأمريكان

لا شك أن الشعب الأمريكي في مجملة وأغلبيته الساحقة بريء من هذه الهمجية التي نتحدث عنها وعن آخر حلقاتها ، وأعني بها الاعتداء على القرآن الكريم ، أقدس وأطهر وأجل ما على وجه الأرض .

والمقصودون بهذه الهمجية هم الذين دنسوا الكتاب المجيد ونجسوه ، ومزقوه وداسوه ، وبعثروا صحفهم المطهرة . فعلوا هذه الفعال القذرة في غوانتنامو ، وفي أفغانستان ، وفي مساجد العراق ومعتقلاته . هذا ما عرف ، وما خفي أعظم .

والمقصود بهذه الهمجية كذلك الرؤساء الذين أذنوا بهذه الأفعال وأمثالها ، أو تغاضوا أو تستروا عليها ، أو أشاروا بها وشجعوا عليها . وكذلك المسؤولون السياسيون والعسكريون للولايات المتحدة الأمريكية ، الذين يتضامنون مع جنودهم وموظفيهم المتورطين ، يتضامنون معهم بالحماية وبالتشكيك والتضليل ، وبالامتناع عن إدانة جرائمهم ومعاقبتهم عليها . إن الموقف الأمريكي الرسمي لا تفسير له إلا التضامن مع المجرمين الأنذال .

إن جريمة الاعتداء على حرمة القرآن الكريم قد تكررت وتواترت إلى حد لا يمكن إنكاره ولا التشكيك فيه ، رواها مغاربة ، وأفغانيون ، وأردنيون ، وسعوديون ، ويمنيون ، ورواها حتى الأمريكيون من المدنيين والعسكريين . ورغم هذا كله ، ما زالت الإدارة الأمريكية متضامنة مع مجرميها لتسجل بذلك إقرارها الرسمي لهذه الجريمة الفريدة في التاريخ .

هذه الجريمة ، القذرة الفريدة في بابها ، قد حركت انتفاضة فريدة في بابها أيضا ، إنها « انتفاضة القرآن الكريم » . لقد تحرك ملايين المسلمين ، وتحرك حتى غير

المسلمين ، دفاعا عن حرمة القرآن المجيد ، وتعبيرا عن الاستنكار والاشمئزاز من التصرفات الخسيسة التي سعت إلى إهانته وإلى إهانة الإسلام والمسلمين من خلاله .

لقد انتفض الملايين في مختلف الدول ومن كافة القارات ، وبلغت انتفاضة القرآن أوجها يوم الجمعة الماضي ، (٢٧ من ماي ٢٠٠٥) الذي اتخذ يوما عالميا للدفاع عن القرآن الكريم . وأرجو أن يصبح يوما سنويا عالميا للقرآن الكريم . وستكون هذه أحسن هدية وأفضل خدمة للقرآن الكريم ، وأبلغ رد على أعداء القرآن الكريم .

لقد كان أعداء القرآن الكريم – أيام نزوله – يدعون إلى مواجهته باللغو والعبث والتشويش وإبعاد الناس عن سماعه ، كما قال تعالى ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت : ٢٦] ، وكانت النتيجة مزيدا من الاهتمام بالقرآن ، ومزيدا من الاستماع إليه ، ومزيدا من الإيمان به ، والعمل بمقتضاه .

وهذا ماحصل الآن نتيجة الاعتداء على حرمة القرآن ، وهو ما يجب أن يستمر : مزيدا من الدفاع عن حرمة القرآن الكريم ، ومزيدا من تعزيز مكانته عند المسلمين وعند غير المسلمين ، وأن يصبح عندنا « يوم عالمي للقرآن الكريم » ، أرجو أن نحتفل به كل سنة بعد الآن إن شاء الله .

قبل أن أختم كتابة هذه الكلمة (صباح الاثنين ٣٠ من ماي ٢٠٠٥) علمت بخبر جريمة أمريكية أخرى ، لا تخلو من صلة بالموضوع ، إنها الاعتقال العدواني لأستاذنا العلامة والمفكر الدكتور محسن عبد الحميد ، رئيس الحزب الإسلامي العراقي . وأما العلاقة بموضوعنا ، فهي أن الدكتور محسن ، هو أحد كبار العلماء المختصين في علوم القرآن والتفسير .

فهو صاحب المؤلفات القيمة في هذا الاختصاص مثل (الرازي مفسرا) و (الألوسي مفسرا) و (دراسات في أصول تفسير القرآن) . وقد كتب هذا

الكتاب الأخير في المغرب عندما كان أستاذا بجامعة محمد الخامس بالرباط ، وكان قبلها أستاذا بجامعة المولى إسماعيل بمكناس خلال الثمانينيات من القرن الماضي .

ما أردت توضيحه هو أن الدكتور محسن عبد الحميد عالم جليل ومفكر كبير وجامعي مقتدر ، قبل أن يكون زعيما سياسيا ورئيسا للحزب الإسلامي العراقي ، وبالذات رجل قرآني وعالم قرآني .

١ من يونيو ٢٠٠٥ م

*****

الشعب الصحراوي من المحيط إلى الخليج

عرفت الأسابيع الأخيرة تحريكا منسقا لما يسمى بقضية الصحراء الغربية ، تحركت منظمات ومعها إذاعات وقنوات ، وارتفعت من خلالها أصوات وشعارات ، وضمن ذلك كله يجري الترويج لما يسمى بالشعب الصحراوي ومطالبه وحقوقه .

ومنذ أن ظهر هذا الوصف الغريب – الشعب الصحراوي – والمصطلح الآخر الأشد غرابة ، وهو اسم « الجمهورية الصحراوية » وأنا أتأمل وأتعجب : إلى أي حد يستطيع الترويج والتضليل أن يختلق أوهاما وأحلاما ، وأن يكسب لها أنصارا ومدافعين ، وإلى أي حد تستطيع صناعة الأوهام والأضاليل أن تسحر أعين الناس وعقولهم . هكذا يفاجأ التاريخ ، وتفاجأ الجغرافية بشيء يولد من لاشيء ، أو لا شيء يخرج من شيء ، فنجد حديثا متصاعدا عن « الشعب الصحراوي » وعن « الجمهورية الصحراوية » يا للعجب ، كيف هذا ؟ من أين هذا ؟ بل أين هذا ؟!

لحسن الحظ ، فإن صناع الوهم لم يجدوا لهذا « الشعب » ولهذه « الجمهورية » لا وصفا تاريخيا ، ولا اسما جغرافيا ، ولا دينيا ولا مذهبيا ، ولا تمييزا قوميا ولا عرقيا ... لم يجدوا إلا وصف « الصحراوي » .

إذا كان لا بد من « شعب صحراوي » بالمغرب ، فليكن هو الشعب المغربي كله أو معظمه . فكل المغاربة تقريبا ، صحراويون بواقعهم ، أو بأصولهم القريبة ، أو البعيدة ، بل إن الأسرة الملكية الحاكمة بالمغرب هي أيضا أسرة صحراوية وسلالة صحراوية ، سواء بأصلها الأول (الجزيرة العربية)وبأصلها الثاني (صحراء تافيلالت) .

وإذا كان لا بد من « شعب صحراوي » بالمغرب ، فموريتانيا أيضا كلها « شعب

صحراوي » . وللجزائر شعبها الصحراوي ، وليبيا ومعظم تونس شعب صحراوي ، وقل هذا نفسه عن مصر والسودان ، وتشاد والصومال . ودول الخليج كلها شعب صحراوي ، أو شعوب صحراوية ...

إذا كانت المشاريع الاستعمارية ، والمخططات التمزيقية ، والآلة الإعلامية ، قد ألصقت بإخواننا وأشقائنا في الأقاليم الصحراوية الجنوبية ، صفة الشعب الصحراوي ، وخدعت كثيرا منهم بهذا الوهم وهذا السراب ، فنحن بنفس المنطلق ، نستطيع أن نتحدث عن الشعب الصحراوي لصحرائنا الشرقية ، وعن الشعب الصحراوي لصحرائنا الوسطى والشمالية ، وعن الشعب الأطلسي الذي يقطن جبال الأطلس ، أو يوجد على الساحل الأطلسي ، وعن الشعب الجبلي المشكل من قبائل جبالة ، وعن الشعب الغرباوي لمنطقة الغرب ...!!

يا إخوتنا وأشقاءنا أبناء صحرائنا الجنوبية ، لندع المتآمرين والمتاجرين ، لندع ذوي الطموحات والتطلعات ، ولندع حتى الحزازات والتظلمات ، فلها بابها وحديثها ، ولنبصر بوضوح وجلاء ، أننا شعب واحد ، ودين واحد ، ومذهب واحد ، ولغة واحدة ، وثقافة واحدة ، وتاريخ واحد ، وجغرافية واحدة ، بل أسرة واحدة وقبيلة واحدة .

لنتذكر ما يدركه حتى الأطفال في مدارسهم وبيوتهم ، أن التفرقة والتمزق والانقسام أو التقسيم ، لا يعني أبدا سوى الاستنزاف ، والضعف ، والهوان والتبعية ، والتفاهة التاريخية . انظروا إلى « شعب صحراوي » مجاور ، يتكون من بضعة ملايين ، وله حدود طويلة عريضة ، ومع ذلك ، فإن الاستقلال المسموم الذي قدر له لم يطعمه من جوع ولا آمنه من خوف ، فكيف بمن هم دون ذلك بمرات عديدة ؟!

يا إخوتنا وأشقاءنا ، إننا نعرف – ويجب أن نعترف – أنكم عانيتم من سياسات

مؤسفة ، وتصرفات متعسفة ، ومظالم مرة . ولكن هذا كله - قل أو كثر - لا يسمح لنا ، في ديننا وقوميتنا ووطنيتنا ، وفي مستقبلنا ومصالحنا العليا ، لا يسمح لنا أن نسقط لقمة سائغة وأداة طيعة في أيدي المغامرين والمتآمرين ، من أعدائنا ، أو حتى من بعض أبنائنا وأقاربنا .

٢٢ من يونيو ٢٠٠٥ م

*****

التوجهات الشيطانية للقيادة الميدانية (*)

في منتجع « ليل يا ليل » على شاطئ البحر الأسود ، عقد الشيطان الجديد ، اجتماعه السنوي مع بعض مساعديه وقادته الميدانيين ، للنظر في حصيلة السنة المنصرمة ، وتقديم التوجيهات والتوجهات اللازمة للسنة المقبلة ، وقد ألقى فخامته خطابا افتتاحيا هاما ، نقتطف منه الفقرات التالية :

لقد قررت هذه السنة أن نعقد في بداية جمعنا هذا جلسة علنية مفتوحة ، قبل أن ندخل في اجتماعاتنا الخاصة المغلقة ، وذلك تمشيا مع مرحلة الشفافية ، التي دخلنا فيها في السنوات الأخيرة . لقد كان عملنا سابقا يكاد ينحصر في علب ليلية مغلقة ونواد خاصة مضيقة . اليوم ، وبفضل توجيهنا وتمويلنا ، وكذلك بفضل شجاعتكم وتضحياتكم الميدانية ، أصبحت أعمالنا الشيطانية المجيدة تتم في واضحة النهار وفي الهواء الطلق ، وأصبحت تملأ الشوارع والحدائق والساحات العمومية . ولذلك أصبحنا ندعو إلى الشفافية المطلقة لأعمالنا وأنشطتنا : وأبرز مثال لذلك هو تحقيق الشفافية الكاملة لأجساد النساء واستعمالاتها المختلفة ، فهذا نموذج للشفافية التي نريدها .

على أن الشفافية والعلنية وتجاوز مرحلة « العلب الليلية » لا يعني تخلينا عن هذه العلب ولا استغناءنا عنها ، إن العلب الليلية والنوادي الخاصة ، ستظل مراكز تدريب وتجريب من أجل تحقيق التطوير اللازم لأعمالنا وطموحاتنا ، وإعداد الأفواج الطليعية لذلك .

(*) كأنما يكتب الكاتب تقريرا صحافيا يصف فيه وقائع حدث حضره شخصيا ، ولم يكن فيه سوى ناقل للأحداث .

ولا بد لي هنا من الاعتراف بأن التطور النوعي لأدائنا وإنجازاتنا ، وما عرفه نشاطنا من اتساع واكتساح ومن علنية وشفافية ، مدين لتلك الأحداث وتلك الأيام الشهيرة ، التي يعدها الآخرون أياما سوداء ، ونعدها نحن أياما بيضاء . نحن مدينون لأيام ١١/ ٩ و ١١/ ٣ و ١٦/ ٥ و ٧/ ٧ ، وهلم جرّا .

لقد كانت أعمالنا توصف بالقذارة والنذالة ، وهاهي بفضل تلك الأيام الغراء أصبحت هي الدواء الشافي و « الخبز الحافي »![1]

بعضهم مازالوا يحاولون معالجة التطرف بالتوعية ، وبعضهم يعولون على رهان التنمية ، ولكننا نقول لهم ونثبت لهم أن لا حل إلا بالتعمية والأنشطة الشيطانية ، ومن رفض الاقتناع فعلاجه الاقتلاع . (تصفيقات) نقول للسادة المسؤولين : هذه هي الحلول السحرية لمشاكلكم مع شعوبكم ومع شبابكم ، وخاصة منهم المتدينين والمسيسين والمعطلين .

بعض أسلافنا كانوا يقولون : اليوم خمر وغدا أمر . ونحن نقول : اليوم خمر وغدا خمر ، ثم رقص ثم بحر ومن لم يجد الخمر فالحشيش أيسر وأقرب ، إن منتوجاتنا تغطي الدواء لكل داء لقد قال شاعرنا قديما : **وداوني بالتي كانت هي الداء** .

فنحن من الداء دواء ومن الدواء داء ، ونجعل المشكلة حلا ونجعل الحل مشكلة . فما عليكم إلا توفير منتوجاتنا بكميات كافية وتقريبها من جميع المواطنين الأعزاء .

---

(١) عنوان كتاب لمحمد شكري ، وهو كتاب معروف بإباحيته وتطبيعه للشذوذ الجنسي ، وقد توالت وزارة الثقافة المغربية على عهد الوزير الاشتراكي محمد الأشعري طبعه ونشره وترجمته إلى عدة لغات قبل أن يتوفي صاحبه سنة ٢٠٠٤ – وكان هذا الوزير قد منع عرض المصحف في أول معرض دولي للكتاب بعد توليه الوزارة ، وفي المقابل سمح بعرض هذا الكتاب بكميات وافرة بعد أن كان ممنوعا قبل ذلك .

يجب أن نقنع الجميع أن لا بديل عن طالبان إلا شاربان وشاطحان ، ومن قال غير هذا فهو يدعو إلى التطرف ويشجع الإرهاب . ومن رفض الاقتناع فعلاجه الاقتلاع .

أما جماعة المحتجين الناصحين [1] ، الذين يرفضون الاقتناع ويستعصون عن الاقتلاع ، فلا تخافوهم ولا تهتموا بهم ، فإنما هم جماعة قليلة من الأيتام ، فليس فيهم إلا يتيم وابن يتيم وأخو يتيم ، إنهم أيتام في مأدبة اللئام ، على حد تعبيرهم .

أما بقايا المثقفين الثوريين الكلاسيكيين ، فقولوا لهم : إن ثورتكم الثقافة قد فشلت ولم تحقق لنا شيئا . ولا بديل عن الثورة الفكرية الثقافية إلا بالثورة الجنسية الموسيقية للقضاء على الأفكار الظلامية (ضحكات وتصفيقات) .

قبل أن أختم هذه الكلمة ، أشير إلى أننا على مقربة من شهر رمضان [2] ، وهو أخطر ما يواجهنا كل سنة ، وهو أكبر تحد لنا ولمشاريعنا ، فيجب أن تعدوا له عدته : ليالي رمضان ، وحفلات رمضان ، وسهرات رمضان ، وملاهي رمضان ، ومسلسلات رمضان ، وفوازير رمضان ، أعدوا له كل جديد ومفيد ومبيد . لا تقولوا لي : إن الشياطين تصفد في رمضان ، وهذا يفقدنا الكثير من إمكاناتنا وقواتنا . فأنا أقول لكم : نحن شياطين الإنس أصبحنا اليوم قادرين على الاستغناء عن شياطين الجن . فما علينا إلا أن نتحلى بشجاعتنا وصمودنا ...

والآن نختم هذه الجلسة العامة ، لنبدأ جلساتنا المغلقة ، بمزيد من الشفافية » .

٣٠ من غشت ٢٠٠٥ م

*****

---

(١) إشارة إلى حركة التوحيد والإصلاح التي أصدرت بيانا تستنكر فيه تسخير المهرجانات لنشر الرذائل وإفساد المجتمع وتبذير الأموال العمومية .

(٢) كتب المقال في خواتيم شهر رجب

المحكي والمنسي في الحرب على العراق

منذ أيام قليلة صدر في باريس كتاب جماعي لمجموعة من الكتاب والأخصائيين، بعنوان « الكتاب الأسود لصدام حسين » تتبع فيه مؤلفوه الجرائم المرتكبة في ظل حكم حزب البعث للعراق، وبصفة خاصة فترة صدام حسين .

وقد ركز الكتاب على جرائم القتل والتعذيب، والتهجير القسري .

وفي الأيام الأخيرة كذلك أنجزت تقارير أمريكية حول نفقات الولايات المتحدة في حربها بالعراق، فإذا هي قد بلغت نحوا من ٦٠٠ مليار دولار، مما يجعلها قد تفوقت في وقت مبكر من مدتها على نفقات حرب فيتنام .

العداد الأمريكي للنفقات المالية يسير جنبا إلى جنب مع عدّاد آخر خاص بالقتلى الأمريكيين في العراق . فكلما قتل أمريكي أو اثنان إلا ونسمع الرقم الجديد .

بل أكثر من هذا، فإن استطلاعات الرأي حول شعبية زعيم الحزب جورج بوش، ومدى ربحه وخسارته، لا تكاد تتوقف أيضا .

الكتاب المتعلق بجرائم صدام حسين، الذي جاء في ٧٠٠ صفحة واشترك في إعداده ثلاثة وعشرون مؤلفا، ينتهي إلى أن « صدام حسين كان أحد أسوأ طغاة التاريخ، وأنه كان من الضروري والملح التخلص منه » . كلام جميل كما يقول صاحب « الاتجاه المعاكس »[(١)] .

جميل أن يوضع كتاب أسود لكل صاحب تاريخ أسود، ولكل صاحب سجل أسود، وجميل أن يتم التخلص من الطغاة المجرمين .

---

(١) هو الدكتور فيصل القاسم صاحب برنامج « التجاه المعاكس » الذي يبث كل ثلاثاء بفضائيات « الجزيرة » .

وجميل أيضا أن يتم إحصاء القتلى فردا فردا ، وأن يتم الإخبار بذلك يوما بيوم وشخصا بشخص .....

وجميل كذلك أن يتم إحصاء نفقات الحروب ، مليارا بعد مليار ، بل حتى دولارا بعد دولار ، لكي يعرف الناس جميعا ما معنى أن تدخل في حرب ، وما معنى أن تستمر في حرب .

هذه بعض الجوانب المحكية والمعلنة في الحرب ضد العراق ، الحرب التي قيل لنا : إنها لنزع أسلحة الدمار الشامل ، ثم أصبحت حربا لإزالة الطاغية صدام حسين ، ثم أصبحت حربا لاجتثاث البعث ، ثم ... ثم ... إلى ما لا نهاية .

لكن هل هناك خبراء وأخصائيون ، يعدون لنا « الكتاب الأسود لما بعد صدام »

هل هناك عداد للعراقيين وغير العراقيين الذي قتلتهم الحرب على العراق ؟ وكم يتوقع أن تستمر وتقتل هذه الحرب ؟

علما بأن الجنود الأمريكيين إن قتلوا وذهبوا ضحية هذه الحرب ، فهم غزاة معتدون محتلون ، جاؤوا بأنفسهم إلى حتفهم ، أما العراقيون ، فهم مظلومون مبتلون بهذا التسلط بلا طلب منهم ولا ذنب لهم . ولذلك فكل واحد يقتل منهم ظلما ، فهو عند الله أغلى من ٦٠٠ مليار دولار التي يتحسر الأمريكيون على فقدانها وعلى طول المدة المنتظرة لتعويضها من العراق .

إذا كان العدّاد الأمريكي تتغير أرقامه بالواحد والاثنين ، وبالثلاثة والأربعة ، كل يوم ، فإن عداد القتلى العراقيين – لو وجد – قد تتغير أرقامه بالمائة والمائتين في اليوم . وكلهم على ذمة الحرب على العراق وعلى ذمة القائمين بها . وكلهم في « الكتاب الأسود لما بعد صدام » وهذا ما يعنيه العلامة القائد خامنئي ، حينما يبادر دائما إلى تحميل الاحتلال مسؤولية المجازر التي تقع في العراق ، لأنه في البداية وفي

النهاية هو الذي صنع ويصنع هذا الواقع ويصر على استمراره واستدامة أسبابه .

ومعلوم أن معاناة العراقيين لا تنحصر في مئات الآلاف من أرواحهم وشهدائهم ، ولكن هناك ما لا يحصى من المصابين والمعطوبين ، ومن الميتمين والمشردين ، ومن الثكالى والأرامل ، ومن المعذبين والمرعوبين .

وهناك الدمار الشامل الذي حل بالبلاد ، فأرجعها خمسين عاما أو ستين عاما إلى الوراء .

وهناك شبح التقسيم وشبح الحرب الأهلية .

والأخطر في هذا كله أنه ليس له أمد زمني منظور أو متوقع ، وليس له أرقام يمكن يمكن أن تتوقف عندها العدّادات لو وجدت .

فاللهم لطفك يالطيف .

٦/ ٩/ ٢٠٠٥ م

*****

الفهرس

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

*****